
الله أكبر
دار العين للنشر
1956
1967
1978
1990
أوطان بلون الفراولة
محمد سامي البوهي
2003
2006
2008
2050
رواية

أوطان بلون الفراولة

أوطان بلون الفراولة

محمد سامي البوهي

الطبعة الأولى/ ١٤٣١هـ، ٢٠١٠م

حقوق الطبع محفوظة



دار العين للنشر
٩٧ كورنيش النيل، روض الفرج، القاهرة
تليفون: ٢٤٥٨٠٣٦٠، فاكس: ٢٤٥٨٠٩٥٥
WWW.elainpublishing.com

الهيئة الاستشارية للدار
أ.د. أحمد شوقي
أ. خالد فهمي
أ.د. فتح الله الشيخ
أ.د. فيصل يونس
أ.د. مصطفى إبراهيم فهمي
المدير العام
د. فاطمة البودي

الغلاف: منار
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ١٩٤٣٧/ ٢٠٠٩
I.S.B.N 978 - 977 - 490 - 018 - 1

أوطان بلون الفراولة

محمد سامي البوهي

دار العين للنشر



بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

البوهي، محمد سامى.

أوطان بلون الفرولة/ محمد سامى البوهي.

الإسكندرية: دار العين للنشر، ٢٠١٠.

ص؛ سم.

تدمك: ١ ٨ ١ ٠ ٠ ٩ ٠ ٤ ٩ ٧ ٧ ٩ ٨ ٧ ٩

١- القصص العربية

أ- العنوان

٨١٣

رقم الإيداع / ١٩٤٣٧ / ٢٠٠٩

إهداء أول

إلى ابنتي حنين ..

إهداء ثانٍ

إلى كل مَن تدلَّت أجسادهم بين السماء والأرض، قانعين بمصائرهم، مؤمنين بأحلامهم في الوطن.



البوهي يشنق أحلامه

بقلم: سامية أبو زيد

على خلاف مجموعته القصصية المتميزة "رائحة الخشب" والتى استلهم فيها شخصيات من الواقع، ثم زيّنها بلمسات من خياله، نجده فى روايته الجديدة في ثوب جديد كامل الأناقة، حيث ترك قلمه يسبح فى الخيال وإن استند فى الجو العام للرواية على وقائع تاريخية معاصرة تبدأ مع القبض على صدام حسين، فبعُد بقلمه عن ملامح الذاتية الواضحة وانطلق خلف شخصياته المبتدعة من محض خياله، ليمسك بها الواحدة تلو الأخرى ويسِمَها برتوش بارعة الرهافة من روحه فلا يلحظها إلا من عرف وقرأ "محمد سامي البوهي" الإنسان.

والرواية تفضح شاعريته التي يصر على إنكارها والتنصل منها، وفيها الكثير من العبارات التى تأخذ بلُبِّ القارئ وتستوقفه قليلا حتى يستخلص قلبه من شِباك حروفها البديعة، ليكمل رحلته بين سطور الرواية وبالقلب والعقل ما بهما من صدى كلماته.

وكما عوّدنا الكاتب المتميز "محمد سامي البوهي" على احترام الكلمة، حيث إنها رسوله الموفد للقارئ، نجد رسوله فى هذه المرة يطرق أبواب العقل والوجدان لنفتح له أبوابها فنرى رسوله فى كامل أناقته وبهائه.

وهذا وعْد من كاتبة السطور بقراءة ممتعة ومثمرة لكاتب سوف يجعلك تبحث عن إبداعاته وتنتظرها بلهفة.

القسم الأول



رسالتي إليك

ابني العزيز..

إن تلك الأوراق التي بين يديك هي كل ما جنيْته من تلك الدنيا، حرصت عليها كحرصي عليك، لتصلك يومًا ما تكون فيه بكامل قوتك، فتتحمل حقيقتك كما تحملتها من قبلك وأنا في كامل ضعفي، فكن قويًا دائمًا، مهما داهمتك الحقائق.

أمك

يناير 2004



1

"يوووه"

اندلقت القهوة

يقولون: إن "دلْق القهوة خير"، غريبة تلك النبوءات الشعبية التي باتت لا تنفصل عن قدرنا المحتوم، فتجمِّل ما به من قبح، وتجعلنا نتقبَّله بتفاؤل، وتقبِّح ما فيه من خير فتحملنا على ارتياده بقلق، ولذلك يجب أن أغادر المكتب حالا، فربما لا تصدُق النبوءة وتكون الساعة هي بداية لشر قادم، لملمت أوراق الرواية ووضعتها تحت إبطي الأيسر، ثم استدعيت عامل النظافة ليصلح تلك الفوضى التي تركتها خلفي.

بالخارج كل شيء يعدو كما العادة، ولا أحد يرحم ما تدوسه قدماه، لكن الطقس مريح لنفسي التي تميل للأهازيج الشتوية، فالشتاء عندي هو الأكثر إبداعًا، لذلك يجب أن أنجز روايتي قبل أن يزحف الصيف على عالمي، فيبدد خيالاتي ويملأ فجواتها بالملل،كان يجب أن أقطع الشارع

للجهة المقابلة كي أجلس في مقهى "الديوان" بقلب المدينة، وأُكمل الرواية التي لم تنته بعد، لكن السيارات المنطلقة لا تعذر، ولا تنتظر عابرًا ليكمل مسعاه للجانب الآخر إلا بعد عناء وصراع يصلان في بعض الأحيان إلى تبادل السباب بينه وبين السائقين، فكلما مددت قدمي اليسرى لأهبط من على الرصيف، لاحقتني سيارة منطلقة فأعود أدراجي، لكنني لا أسلم من رذاذ الطين المندفع من إطاراتها المبللة بفعل المطر، طال الوقت وأنا على هذه الحال، حتى إنني قررت أن أعبر دون أن ألتفت للقادم المجهول، و لم الخوف إذًا ما دامت مكابح السيارات تستطيع أن تشل حركتها في الوقت المناسب؟ كنت في منتصف الطريق حينما فوجئت بصاروخ مندفع يفتح فمه لي، ركضت بأقصى سرعة أمام بوقه اللعين بعد أن تناثرت أوراقي بالهواء، ربما صدقت نبوءة القهوة هذه اللحظة، وكانت نجاتي من الموت المؤكد هي الخير الذي ينتظرني، أو ربما خابت النبوءة بفقداني لشخوص روايتي التي دهستها إطارات السيارات المتلاحقة أمام عيني، قلت في نفسي، وأنا أبتسم للشتائم التي نالتني من السائق الأحمق، صدقت النبوءة أم كذبت لا يهم، المهم أنني ما زلت على قيد الحياة.

اقترب مني النادل يسألني عن مطلبي، فقلت له مكررًا؛ شاي، كوب شاي بالنعناع، فحدَّق في وجهي مستغربًا لهجتي الحادة، ثم انصرف عني ليحضر ما طلبت، جلست أفكر في أجزاء الرواية التي فقدتها منذ لحظات ولسوء الحظ لا أمتلك نسخة أخرى لها، ويستحيل عليّ أن أعيد كتابتها، كما يستحيل على أي كاتب فِعل ذلك، فالكتابة هي وليدة اللحظة، وكل

لحظة تمر عليّ لها بصمتها المميزة التي لا تتكرر، لكن الشخوص التي حفرت ملامحها ما زالت تتقافز أمامي، وكأني أراها رأي العين، وأسمع أصواتها كأنما أسمع لغطًا بسوق مزدحمة، لكنني سرعان ما تذكرت أنني كنت سأفقد حياتي منذ لحظات، فدماء شخوصي لم تذهب هدرًا، بل كانت فداءً لروحي، فشعرت بقناعة كمَنت بالنفس، قلَّصت داخلي حدة الحسرة، وقعت عيني على كوب الشاي بلونه الكهرماني يتوسط الصينية أمامي، ارتشفت منه رشفتين، وأسندت ظهري للخلف، لأعيد ترتيب أوراقي التي تبعثرت، فكيف لي أن أكتب من جديد، وكيف أعيد ترميم أفكاري التي تمزقت؟ فهل سيمر العام دون إنجاز أضيفه لحياتي التي لم يعد بها ما يغري للبقاء؟ توقفت عند كلمة حياتي وانفجرت ضاحكا، فالتفت إليّ الحاضرون، ثم سمعت مَن يجلس بالطاولة المقابلة يقول: "خيرًا اللهم اجعله خيرًا"، فتذكرت نبوءة القهوة، فزادت ضحكاتي، وأنا أردد نعم الضحك خير، ودلق القهوة أيضًا خير، صمت الجميع عندما رددت رأسي للخلف في محاولة لاستعادة توازني.

كانت تجلس بطاولة منزوية بطرف المقهى، جذبني شعرها المنساب لأسكن في عتمته، صعدت مع حلقات دخان سيجارتها، وذُبت مع ألوان ملابسها المبهجة، فألحَّ عليّ المجهول بأن أقترب لأطالع وجهها، فراهنت نفسي أنني سأعثر على فاتنة ستمنحني ملامحها لأُفْرِدها على أوراقي، فأُتَوِّجها مليكة بممالك رواياتي، ولم أتردد لحظة حينما طلبت من النادل أن ينقل فنجان الشاي إلى طاولة حددتها لأكون بمواجهتها تماما، وبعدما استجاب لما أمرته به، اقترب من أذني هامسًا بخبث: عراقية يا أستاذ، يوميًا

تأتي لتشرب قهوتها هنا في نفس الموعد، تظاهرت بعدم الاهتمام، لأخيِّب ما يرمي إليه، و لم أعلق على ما قاله رغم أنه أجَّج فضولي، التزمتُ وقاري ووضعت رأسي بالجريدة، ثم تسللت بنظري نحوها، وهيَّأت نفسي لكسبِ الرهان الذي عقدته بيني وبين هواجسي الفضولية، لكني تسمَّرت على مقعدي حينما بلغت نظراتي نحوها أوْج النضج، كان بريق ينحدر من عينيها غير الذي أراه يشع من وجوه الفاتنات، بريق لا تلطخه بهرجة الألوان، ولا يتشح بنضارة النساء، بل كان وجهًا شاحبًا يلمع بخطوط الألم الذي يبعث في النفس راحة بوقْع اللذة، فبانت أمامي ملامح وطن بكل تقاسيمه، أرى فيه لون الأرض والسماء، والشمس والقمر، وأسمع منه أنين الطرقات وصخب المدن، فجلست أرسم كل ما فيه من حياة، وألصقه بخيالي علَّني أعثر على ما يرضيني، وأملأ تلك الفجوة التي وقعت فيها حينما دهست السيارات شخوص روايتي التي لم تكتمل.

لكن جاءت ثرثرة النادل مع زبائن الطاولة الخلفية كغراب البيْن، الذي يستلذ بقطع الأوصال، فصوته كصوت آنية نحاسية تصفعها كرة حديدية صدئة، ينخر المخ ويملأ الروح بالضلالات، حتى إنني كدت أجن، فالتفتُّ نحوه وصرخت في وجهه: كفى كفي، توقف عن تلك الثرثرة، عاد الهدوء للمكان مع استغراب الحاضرين، لكنني كنت أشم رائحة الغيْظ تفوح من أنفه، فحدق في وجهي عاجزًا عن رد الصاع، فالزبون دائمًا على حق، ولقمة العيش تؤول لها كل الحقوق، فاقترب مني ببطء، ومد رأسه نحوي حتى وضحت أمامي شحمة أذنه متورِّدة بالخجل، وقدم اعتذارًا فهمته جيدًا، ثم انصرف حاملا فنجاني الفارغ نحو الداخل، بدأت أستعيد تلك

الهالة التي كنت أعيش فيها منذ لحظات، فنشرت الجريدة أمام وجهي، وعدت لأختلس النظر من وجهها الذي منحني الفرصة لأُلْملم أوراقي الضائعة، لكني فوجئت أنني عدت لأختلس النظر من طاولة خاوية.

2

لم يكن أمامي سوى التسليم بنبوءة القهوة المدلوقة بخيرها وشرها، ففي مثل هذا اليوم المشحون بالخسائر، لا بد وأن أساير الريح، كي لا أعيش بين براثن الإحباط فتصاب حياتي بشلل لست مستعدًا له الآن، ففصل الشتاء هو فرصتي الوحيدة لادخار ما يرضي سليقتي من الإبداع، ما أجمل التفكير تحت زخّات المياه الدافئة المنطلقة من مرش الاستحمام، دائما ما يقودني في أحلك حالاتي إلى القرار الرشيد، آه لو يصلح أن أصطحب معي هذا المرش الساحر بكل مكان لصرت حكيمًا لزماني، أنهيت تجفيف جسدي بالمنشفة، وبعُجالة ارتديت ملابسي لألملم جسدي المرتعش، غادرت الحمام إلى غرفة نومي، أشعلت المدفأة، ورحت أراقص الهواء مع موسيقى عمر خيرت الخلابة، حلقت بكل مكان طالته قدماي، تناثرت كل شخوصي من حولي، صابر وعاصم ووفاء، خالد ووداد وإسماعيل، تلاشوا جميعًا في القاع، وبقي التعب يرهقني فدسست جسدي في باطن الدفء..

الواحدة صباحًا.

انطلق جرس الباب مهشمًا الصمت، انتفضت مفزوعًا وأنا أحاول استيعاب كتل الأثاث المتناثرة، خامرني الشك بأن يكون الطارق هو أحد أصدقائي، فجميع علاقاتي لا تتعدى حدود العمل أو المقهى، واستبعدت أن يكون زائرًا من زوار الليل، فما أكتبه بمقالاتي لم يعد له علاقة بالسلطة لا من قريب أو بعيد، نهضت من الفراش وأنا أطالع ساعة الحائط، توجهت نحو الباب، أدرت المقبض ببطء ثم سحبته بحرص شديد، لم أصدق ما طالعته بأم عيني، المستحيل بنفسه، بشحمه ولحمه يمثل أمامي؟ هل سيتهمني الناس بالجنون حينما أقسم لهم أن المستحيل زارني أمس في منزلي؟ وقفت فاغرًا فاهي، وأنا أغرس قدمي في الأرض من تحتي، فما أراه لا يتحمله بشر، فتاة مقهى "الديوان"! لم أتخيّل يومًا أن يتحقق ما أحلم به بهذه السرعة، كثيرًا؛ ما نعيْت حظي لأنه لا يحالفني أبدًا و لم يهبني يومًا ما أردته حلوًا طريًا، بل يصفعه بوجهي بعد أن يلف حول رقبتي قلادة التعاسة، رسمتْ ابتسامة بين شفتيها رأيت فيها كل الدنيا، ثم قالت متدلّلة:

– هل سيطول انتظاري أمام بابك؟

بدا ارتباكي ظاهرًا، فما زلت أعيش في اللا وعي، أريد مَن يأتي ويمضغ جلدي كي أعي إن كنت في حلم أم علم، أفسحت لها الباب وأنا أتلعثم:

– تفـ ..تفضَّلي، أهلا بك.

تقدَّمَتْ نحو الصالة، وهي تمسح بعينيها كل ركن فيها، خلعتْ معطفها المخملي وألقته على المقعد، ثم قالت وهي ترفع رأسها لأعلى:

- شقتك جميلة.. "عيني".
- هذا من لطفك.

جلستْ على المقعد الفسيح المواجه لمعطفها، أشعلت سيجارة، جذبت منها نفسًا عميقًا، ثم لفّت ساقًا بساق، نظرت نحوي وهي تبتسم:

- لماذا تقف عندك؟ تعال هنا جواري.
- جوارك؟

كدت أُطْرَح أرضًا لهوْل المفاجأة، لكن ساعدني فضولي على التماسك، فأسئلة كثيرة تتقافز أمامي أريد الحصول على إجابات لها، ركضتُ داخلي، سرت بشراييني، حملتها دمائي لتُتْخِم كل مراكز الإحساس، ضغطت على أقرب مكبس كهربائي، فتسلل ضوء خافت خضَّب أجواء المكان بصفرة شفيفة، التفتت نحوي بحزم:

- قلت لك تعال جواري.
- حسنًا" لكن..
- لكن ماذا؟
- كيف حصلتِ على .....؟
- على عنوانك.. أهذا ما تريد الوصول إليه؟
- ليس تحديدًا لكن..
- لكن ماذا؟
- لا. لا شيء.
- أعرف ما يدور بذهنك، وألمح دهشة بعينيك.
- صراحة هي مفاجأة غير متوقعة.

- لكني لم آت إلى هنا لأجيب عن أسئلتك.
- ماذا؟
- قلت لك اقترب، لن آكلك.. "عيني".
- لماذا أتيت إذًا؟
- ستعرف..

نهضتْ من مقعدها ومدت يدها تجاهي، ثم فردت كفها أمامي، بعد أن رسمت على شفتيها ابتسامة مطمئنة:

- أعطني يدك.

ترددت قليلا، ثم مددت يدي في استسلام، جذبتني نحوها بقوة وسط أنغام "التانغو" التي تساقطت حولنا كالقصاصات الملونة، شعرت أنني أرتفع فوق حدود الأضواء، والأصوات، وأهداب الخيال، رأيت الدنيا بشكل آخر، بوجه آخر، بألوان أخرى أزهى وأوضح من كل ألوان حياتي الماضية، تشبَّثت أصابعها بأطراف أصابعي، ثم أخذتني إلى نهاية العالم، وعادت بي إلى حيث أقف، دُسْت الأنغام المتساقطة فألقتني عاليًا، وانخفضت بي أمام عينيها، لفَّتني حول ذراعها، ثم طرحتني على خطوط الدفء، انتعشتُ، شهقتُ بالحياة، ثم فقدت كل ما يدور في فلكي، لم أعد أرى سوى لمعان عينيها، فكان عن يميني وعن يساري، من فوقي ومن تحتي، من أمامي وخلفي، فنثرتْ على وجهي قليلا من الحلم، فعدت أرى كل الأشياء، تفرقت أصابعنا، هدأ اللحن، وتعددت الألوان.

كنت ألهث حينما ألقيت بجسدي على المقعد جوارها، ردَّت ظهرها

للخلف ثم أشعلت سيجارة أخرى، سحبت رشفة بشفتيها، دفعت الدخان للأمام، نظرتْ نحوي وعادت تُسند رأسها للخلف:

- لماذا كنت تختلس النظر إليّ من خلف الجريدة؟

أقمتُ ظهري بسرعة خاطفة، وهممت بفتح فمي إلى حيث لا أعلم من أين تكون الإجابات، تلعثمت قليلا قبل أن أنطق محاولا النفي:

- لَم..
- لَا تجب عن سؤالي.
- لَم؟
- أعلم جيدًا أنك ستكذب.
- الأمر لا يحتاج للكذب.
- وكذلك أنا لا أحتاج للإجابة.
- كنت فقط..
- ما اسمك؟
- "ضياء عزام".
- نعم تذكَرت. أخبرني نادل المقهى.
- النادل؟! هذا اللعين..
- لم يقاوم كثيرًا ما منحته إياه.
- وبالطبع أخبرك عن عنواني و..
- قلت لك لم يقاوم.
- ما اسمك.
- "نجوى صلاح الدين".

- و لِمَ أتيت لسؤالي طالما أنك لا تنتظرين إجابة؟
- أريَد أن أخلد للنوم .
- ماذا؟!
- مرهقة جدًا.. لو سمحت لي.
- سترحلين؟
- بل سأبيت هنا.
- هنا!
- لديك ما يجعلني أثق بك.

أصبحت على صفعات المطر لزجاج النافذة الخارجية، فعانقت معطفها وضممته نحو صدري كمحاولة أخيرة لاستجداء الدفء، نظرت صوْب النور الفضي الذي يسيل ببطء بمقدمة الصالة، فانشرح صدري لهذا الصباح الشتوي المبدع، فيبدو أن الحظ بدأ يبسط كفه لي، ويرتاح لأمنياتي الممتدة عبر سماء ملبدة بغيوم قرمزية، فمَن يمتلك على وجه الأرض ما أمتلكه أنا الآن؟ طقس تتكاثر فيه أفكاري فتدب فيها الروح فتمزق شرنقة الغباء، ومليكة تمنيْت أن تسكن قصور حكاياتي فتأتي لزيارتي على غير موعد، وتنام ليلة كاملة بفراشي، وتكسر حاجز الصمت الذي ارتفع أمام بابي منذ فقدان أبي ووفاة أمي، كنت أشعر ببعض آلام في الظهر من جراء نومي على المقعد بالصالة، لكنها تضاءلت عندما اتجهت لغرفة النوم، وطالعت وجهها البريء مستلقيًا كزهرة ندِيَّة تُطبِق جفونها على منتهى الجمال، أحكمتُ غطاءها في هدوء، وانصرفت عنها وأنا أسير على رؤوس أصابعي.

3

طلبت من سائق التاكسي أن يغلق المذياع، فما زلت أعيش اللحظة الماضية بكل تفاصيلها، ولا أريد ما يشوِّش عليّ حالة الصفاء التي تسكن نفسي، لكنني فوجئت بالسائق يقول لي بلهجة غليظة:

- نشرة الأخبار يا أستاذ.
- وما الجديد في نشرة الأخبار؟
- قبضوا على "صدام حسين".
- كيف ذلك؟
- الخبر يملأ الدنيا يا "بيه".
- متأكد من هذا الخبر؟
- لحظة يا أستاذ.. "نشرة 9".
- هنا القاهرة .. الأحد 14 ديسمبر2003.

نادرًا جدًا ما ألتفتُ لتطلعات الزمن، ونادرًا ما أتوقف أمامه وأعي تلك الأرقام التي يشير إليها، فالأيام عندي تنحصر في الفصول الأربعة، ربيع

أعيش فيه مأساتي مع ضيق التنفس والاختناق، صيف تتلبَّد فيه أفكاري فأتوقف حتى عن مجرد الكلام، وخريف يُتْخمني بالكآبة، وشعور بعدم الأمان، وشتاء أدشِّن فيه أحرفي الجديدة لأغزلَ حُلَّتي المزركشة التي أتباهى بها طوال العام، لكني توقفت اليوم عند هذا التاريخ، نظرت للشارع الممتد كأني لم أره منذ ألف عام مضت، فزمني تعوّدت أن أصنعه بنفسي، وأعيش فيه داخل أجواء رواياتي، لم أجرِّب أبدًا أن أعيشَ اللحظة، ولم أخرج لهذا العالم منفصلا عن كياني الخاص، لا أعلم لِمَ هزني هذا الخبر، رغم مقاطعتي لنشرات الأخبار منذ سنوات طويلة، فما يصلني من أخبار لا يتجاوز حدود السماع العابر من هنا أو هناك، طلبت من السائق التوقف ناحية اليمين لأترجّل المسافة المتبقية للوصول للجورنال، شعرت بحاجة مُلحّة للانفراد بالناس من حولي، ورغبة قوية في عناق كل واحد منهم علَى حدة، كنت أبحث لكل منهم عن ركن بأوراقي لأُتوِّجه بطلا لا مثيل له، لكن كيف لرواية واحدة أن تحوي هذا الكم من القصص المتناثرة؟

عبرت البوابة الرئيسية للجورنال، فرأيت حركة غير عادية لمحرري الأخبار، فكل قسم يستمد أهميته من أحداثه، فإذا أتى معرض القاهرة الدولي للكتاب، صار مسئول القسم الثقافي هو الفتى المدلل لدى رئيس التحرير، وإذا طفَت على السطح قضية قتل كبيرة فُتحت لمسئول قسم الحوادث كل الأبواب، وأظن أن هذا اليوم سيكون في صف صديقي اللدود "فريد زيدان" مسئول صفحة الأخبار الخارجية. توقفت أمام مكتبه لأرقب الموقف من بعيد، فوجدته منهمكًا في العمل، تقدمت نحوه وألقيت عليه تحية الصباح، رددت ممازحًا:

- اليوم يومك يا بطل.

رسم ابتسامة خفيفة على وجهه، ومد لي يده مصافحًا، ثم أشار لي بالجلوس قائلا:

- اليوم أمر وغدًا خمر.
- وهل في عالم الصحافة خمر يا رجل؟

رسم ابتسامة جديدة على وجهه البشوش، ثم رفع كتفيه قائلا:

- أين نذهب نحن منكم يا بائعي الكلام؟
- تأتون لشرائه منا بالطبع يا صديقي.

وجَم وجهه بعض الشيء، ثم وضع في يدي صورة بحجم الكف لشخص عجوز تتدلى لحية كثيفة بيضاء من أمامه، تأملت ملامح وجهه فوجدت عينيه غائرة في عظام الجمجمة، تعتلي رأسه لفافة من الشعر الملبك الرثّ، وبدت آثار لجرح لم يندمل بعد تحت حاجبه الأيسر، نشرت الصورة بين يدي لأُحكِم تأمُّل هذا الوجه الذي يصلح أن يكون على أوراقي رمزًا للقهر وعذابات السنين، تساءل:

- عرفت مَن صاحب الصورة؟

تأملتها جيدًّ"، وتفحصت تقاسيم الوجه بدقة، ثم هززت رأسي بالنفي:

- وهل يفترض أني أعرفه؟
- تخيل أن هذه صورة " صدام حسين" أثناء اعتقاله بالأمس.
- معقول؟!
- يا صديقي في زمننا هذا بطل العجب.

تركت الصورة خلفي، وتوجهت صوب مكتبي بآخر الممر، دفعت الباب ثم وقفت أمام النافذة الزجاجية المطلة على "مسجد الفتح"، رفعت رأسي حتى طالت عيناي أعلى نقطة بالمئذنة، ساعتها دخلت مع نفسي في حوارات عديدة، وأسئلة تهافتت عليّ من كل صوب، فكيف نفذ جسدي من هذا الثقب الذي يفصلني عن الجنون دون أن يُطْبِق على رأسي، أو أُصاب بأذى؟ هل أمضيت سنوات عمري الماضية غارقًا في وهْم صنعته بيدي؟ نظرت للكتب القائمة بمكتبتي وابتسمت بأسى خرج من صدري كصهد أغسطس، جلست خلف مكتبي، وبعد محاولة يائسة للإمساك بالقلم رددته إلى مكانه، لكني شعرت ببادرة انفراج حينما عدت ببعض لحظاتي إلى الخلف، مستعيدًا أحداث ليلة ماضية، سكنت أنفاسي قليلا، ثم انطلقت فجأة مرددًا اسمها "نجوى"!! جذبت السماعة واتصلت على هاتف منزلي، لكن نفدت محاولة الاتصال ولا مجيب، أعدت المحاولة من جديد لكن دون جدوى، ربما ما زالت نائمة، استنتاج طرحته على نفسي بعد أن حدَّقت في ساعة الحائط، كنت لا أعي معنى الزمن ولا أحيد عن دورة ساعة الحائط التي تحددني بموعد انتهاء العمل، وموعد نومي، واستيقاظي، فهل ظهرت "نجوى" في حياتي لأقع في دائرة الساعات؟ أرهقني الملل بعدما أخبرني رئيس التحرير بضم عمودي إلى صفحة الأخبار الخارجية لغزارة المادة المطروحة بسبب ما يدور على الساحة من أحداث، فقررت أن أغادر الجورنال وأترك العرس لأصحابه.

4

استقبلني النادل بحفاوة لم أعهدها، فصدرت له نظرة شابها الغيظ وامتعضت مُظهِرًا اشمئزازي، كنت لا أطيق سماع صوته، أو حتى رؤية وجهه، على الرغم أن ثرثرته هذه جاءت لصالحي؛ فنظر إليّ مشدوهًا لردة فعلي وكأن أصابه الخرس، طويته خلفي وأكملت تقدُّمي نحو الداخل، فوجئت بـ "نجوى" تجلس بنفس الطاولة، أسرعت الخطى نحوها، وتساءلتُ مستغربًا:

– "نجوى" . أنت هنا؟

رفعت رأسها نحوي، وأشارت لنفسها بأطراف أصابعها، ثم تساءلت مستغربة:

– تقصدني أنا؟!

– بالطبع أقصدك.

– مؤكد أنك مخطئ.

- كيف ذلك؟!
- لست أدعى "نجوى" .
- عندما تركتك نائمة بفراشي و..
- مهلا مهلا، أنت تبحث عن عاهرة!
- ماذا؟
- نمت بفراشك ! أنت مجنون!
- مجنون!

لم أتخيل للحظة واحدة أنني كنت أعيش داخل قطرة سوداء، أرى من خلالها وجوهًا كثيرة، لكنها في الحقيقة كانت ضلالات حمقاء لوجه واحد فقط، وجهي أنا.

تراجعت للخلف وأنا أتعثر بأفكاري، وهواجسي، وأحلامي، وكل شيء، حتى استقر جسدي عند أقرب طاولة، جلست أحدِّق في تقاسيم المكان، هل حقًا" وصلت بي الحال إلى الجنون دون أن أدري؟ فكيف سمحت للحلم أن يسحبني معه إلى هذا الحد؟ اخترقتني تلك الأسئلة بينما كان التلفاز يعرض مشاهد القبض على "صدام حسين"، فزاد قلقي أن يكون ما أراه أمامي الآن هو حلم آخر، فلا يمكن أن تتحطم الأسطورة بهذه السهولة، وبهذا الاستسلام إلا في عوالم الخيال، استدعيت النادل المسكين، استحمل جنوني كثيرًا، ورغم ذلك ما زال يبتسم في وجهي، طلبت منه بلهجة استعطاف:

- قهوة حلوة من فضلك.
- لك ذلك يا أستاذ.

- سؤال من فضلك .
- تفضل.
- هل نحن نعيش في حلم؟

فرد مبتسمًا وهو يشير بيده نحو التلفاز:

- عندك حق.. فما يحدث الآن ولا في الأحلام.

جاءت إجابة النادل بردًا وسلامًا على نفسي المعذبة، فما زلت أحتفظ ببعض عقل يحملني لمواصلة عمري الباقي، دون أن تتوجه إليّ أصابع الناس بإشارات الجنون، فبالرغم من عيشي بقدم في الوهْم وقدم في الواقع، فإنه يكفيني قليل من العقل، ومزيد من الجنون.

أخذني المشهد المؤلم إلى غياهب الماضي التي لم أفكر أبدًا أن أطأ عتبته إلا لطلب استعارة ذكرى أوثقها برواية من رواياتي، فشعرت بقلبي ينكمش على تلابيب الحزن، فما أراه الآن هو صفعة قاسية على وجوه العرب جميعًا، طالما حيرني التفكير في أمر هذا الرجل، منذ أن التقيته كواحد من أفراد الوفد المصري، بمهرجان "المربد" الثقافي ببغداد قبل سبعة عشر عاما، كنا قد تلقينا دعوة خاصة منه لتناول العشاء بقصره الرئاسي، على هامش المهرجان، رأيته وجيهًا هادئًا، يتمتع بطلعة مهيبة. يُصدر أوامره للحرَّاس بثقة غير عادية، تحسها حنونة، لكنك إن تمعَّنت في لهجته تشعرها قمة القسوة، كل مَن حوله يفهمونه بمجرد الإشارة، ينظرون في عينيه ومن ثَم يجوبون الأبواب ذهابًا وإيابًا. رحّب بنا بحفاوة أراحت نفوسنا القلِقة، ثم تحدث معنا في أمور كثيرة، وقضايا شائكة وحساسة،

أبرزها حربه الدائرة مع "إيران"، والقضية الفلسطينية، والوجود الصهيوني بظهر العرب، وفجأة لمحنا في عينيه رتوشًا تبرق بالدموع، عندما تحوّل حديثه إلى مصر، فعبر لنا عن حبه الشديد لها ولأهلها، وكم هو عاشق للإسكندرية التي عاش فيها أجمل أيام حياته أثناء دراسته بكلية الحقوق.

بعد تناول الطعام دعانا لاحتساء الشاي العراقي الشهير والقهوة العربية، بجلسة أعدت خصيصًا من أجلنا، كانت أشبه بجلسات ألف ليلة وليلة، اندهشنا جميعًا حينما همَّ بإلقاء قصيدة طويلة عن القدس وأمجاد العرب، صفَّقنا بشدة.. زدنا من حرارة التصفيق عندما أخبرنا أنها من نتاجه الأدبي، وبعد أن استمع لآرائنا برحابة صدر، أنهى اللقاء؛ معربًا عن استمتاعه الشديد بجلستنا، غادرنا القصر وكل منا يحمل نحوه مفهومًا جديدًا غير الذي سمعناه أو قرأناه عنه، وفوجئت بعد عودتنا لمصر بأن كل من حضر اللقاء قام بالتعبير عنه إما بمقال بجريدة، أو حديث لمجلة أو كتاب حكى فيه تفاصيل اللقاء، إلا أنا الوحيد الذي لم يعبر أبدًا عن تلك الدقائق التي قضيتها بتلك الأسطورة، فمشاعري نحوه متضاربة، جعلتني لا أفكر أبدًا في التعرض لهذا الحدث بالقلم _ يا سبحان الله _ هذا الوجيه الأنيق تنتهي به الحال بحفرة في باطن الأرض؟! أي حياة تلك التي نعيشها؟ أهكذا تكون النهاية بهذا القبح وهذا السواد؟ لله درك يا دنيا.

أفقت من غفلتي على صوت استدعائها للنادل الذي كان في طريقه نحو الداخل بعد أن وضع فنجان القهوة على طاولتي، استجاب لندائها، مغيرًا مساره نحوها، تحدثت معه بصوت خفيض، لم يصلني منه سوى همهمات غير مفهومة، ثم لاحظت أن أنظار النادل تتجه نحوي، وبدأ

يمارس هوايته المفضلة. ثرثر كثيرًا دون أن أتوصل إلى كلمة واحدة تكشف لي مسار الحديث بينهما، لكن حدسي كان يحدثني بأنها تشكوني إليه، وتقص له عن موقف الجنون الذي اقترفته في حقها قبل لحظات، فبدا عليّ الارتباك من ردة فعل النادل الذي آتته الفرصة على طبق من ذهب للانتقام مني، فهممت بارتشاف جرعة من فنجان القهوة في ترقب للقادم، تقدم نحوي راسمًا ابتسامة عريضة على شفتيه، فتأهّبت لطلب الحساب ومن ثَم مغادرة المكان قبل أن يُدلي بحديث ما يعكر صفوي، لكنه مر من خلفي متجهًا صوب الداخل مخيبًا توقعاتي، تنفست الصعداء، وشعرت بجسدي ينساب على المقعد، ثم بدأت ألملم أوراقي بالحقيبة عازمًا الرحيل، هربًا من نبوءة القهوة، فإذا كان "دلق القهوة خيرًا"، فمعنى ذلك أن الشر يكمن في فنجان القهوة الذي لم يصبه أذى. بعد ما انتهيت من لملمة جميع أوراقي، لمحتها بطرف عيني ترقُب تحركاتي، وبينما أستعد للنهوض من مكاني، رأيتها تحمل فنجان قهوتها بين يديها، وبدأت خطواتها تتجه نحوي، لم أشعر بقلبي يدق بمثل هذه السرعة منذ كنت طفلا في العاشرة يخاف الظلام كخوفه من الموت، سحبتْ مقعدًا من طاولتي ثم استأذنت بالجلوس، اهتز لساني تلقائيًا بالموافقة، جلست بمواجهتي، أعادت الابتسامة بعد أن سحبت نفسًا طويلا من سيجارتها، أخرجته بتلذذ ثم قالت بلهجة هادئة:

- لم أكن أعلم أنك كاتب.
- ....
- أعتذر.

كنت ما زلت صامتًا، أو مشلولا، أو متجمدًا، حاولت أن أحدد ما آل إليه جسدي، لكنني عجزت أمام هذا التداخل، والاندماج اللذين أصابا كامل أعضائي، فنزع لساني الكلمات من داخلي.

- بل أنا من وجب عليه الاعتذار.
- حصل خير.
- عراقية أليس كذلك؟
- بل إنسانة.
- ما اسمك؟
- "نداء قاسم".
- "نداء"؟!
- نعم.
- لست "نجوى"؟!
- لا لست هي؟
- أعلم أنك لست هي.
- فلِمَ السؤال إذًا؟
- غير مصدق أنني..
- أنك كنت تحلم أليس كذلك؟
- كيف عرفت ذلك؟
- عرفت أنك كاتب فتوقعت.
- توقعت أنني مجنون؟
- أعتذر بشدة.

- قلت لك مَن وجب عليه الاعتذار هو أنا.
- ما اسمك؟
- "ضياء عزام".
- اسم يوحي بالأمل.
- هذا من لُطفك.
- تجلس هنا دائمًا؟
- يوميًا" تقريبًا.
- ستكون هنا غدًا؟
- نعم في نفس الموعد.
- إذن اسمح لي بالمغادرة الآن.
- لم نكمل الحديث بعد.
- غدًا في نفس الموعد سأكون هنا.

قالتها وهي تلتقط حقيبتها المتدلية من مقعدها، ثم أسرعت الخطى لتذوب أمامي خلف باب المقهى المرصع بقطع الزجاج الملونة.

5

شعرت أنني إنسان آخر غير الذي أحويه داخلي، إنسان يطالع الدنيا ككائن انفجر عنه القمقم النحاسي الذي حُبس فيه منذ سنين طويلة، إنسان يتنفس ويتحرك ويعي ما يدور حوله جيدًا، امتد بي النظر حتى نهاية الطريق فوجدته أكثر اتساعًا ورحابة، كبت رغبتي في العدو والقفز لأعلى والصراخ كالأطفال، لكني كنت سعيدًا جدًا بتلك الرغبة. لم يكن الكورنيش عامرًا بالناس، لكن احتواني الدفء المنبعث من مصابيح عربات الترمس، والحمص، والبطاطا، المتناثرة هنا وهناك، ألفت وجوه الباعة وتعايشت مع أحلامهم الصغيرة التي تدلّت من أعينهم اللامعة بالطيبة، امتد ناظري مع صفحة النيل المتألقة، فآنست روحي الصفاء، فانتحرت همومي على الطريق الممتد، شعور لم أكن لأصل إليه إلا بالموت.

النيل عن يميني، والقاهرة تحيط بي، فماذا أريد بعد؟ والدنيا كلها تستلقي بين عينيَ، ووجهها يمتد أمامي كلوحة مائية تشع كالفيروز، ماذا أريد بعد؟ وها أنا أصل لقمة غاياتي وأغرس راية حلمي برأس المستحيل،

بالأمس راقصتني وتنفست من فراشي، واليوم جلست أمامي، ابتسمت لي، حدثتني، ووعدتني بلقاء آخر، فماذا أريد بعد؟

جلست على المقعد الخشبي لأستمتع باللحظة قبل أن تصبح في عداد الماضي، لكن دفقات البرد بدأت تطاردني، فزاد إصراري على المواصلة، كانت دندنات عود بدأت تستيقظ من مكان ما، فالتفت إلى حيث تقبع النغمات، فرأيت شيخًا جالسًا بالمقعد الموازي لمقعدي، أخذت أتأمل الحلقة المنعقدة حوله من باعة الترمس والحمص والذرة، وهم يرددون خلفه بانسجام يضفي على النفس بهجة وحياة: "أمانة عليك يا ليل طول، وهات العمر من الأول"، توقفت أمام الحلقة، وبدأت أنساب معهم دون أدنى مقاومة.

رافقني الشيخ لاستكمال رحلتي التي بدأتها على الكورنيش، أخذ يحدثني عن زمن الطرب الأصيل، وشارع محمد علي وعماد الدين ومنيرة المهدية، وسلامة حجازي، ثم توقَّف ليسألني عن سبب وجودي في مثل هذا الطقس على شاطئ النيل، فأجبته دون تردد:

- أتيت لأدندن معك.

رمقني بنظرة استغراب، ثم ربت على كتفي، مبتسمًا: ومَن يسمع نغماتي لا بد وأن يعود إليّ يوما ما. حدَّق في ملامحي للحظات ثم انصرف عني طارحًا خلفه الضباب، ناديته بأن يعود لكن دون جدوى، لم يدم إعجابي بفصاحته كثيرًا، فخواطري مشحونة بما هو أهم من مجرد كلمة مبهمة ألقاها عليّ رجل تجاوز السبعين عامًا وانصرف، وقفت وحيدًا أمام صفحة النيل العامرة بأضواء القاهرة، وملأت صدري بالروعة، كان

الصبح قد بدأ يزهو بلونه الثلجي، وبدأ الزخم يزيح هدوء الشارع الممتد، لم يكن هناك متسع من الوقت للعودة للمنزل كي أبدل ملابسي، لوّحت لتاكسي لينقلني إلى الجورنال، جلست في المقعد الأمامي جوار السائق، انتابتني رغبة ملحة في الثرثرة، وجذب أطراف الحديث معه على غير العادة، إلا أنه لم ينطق بكلمة واحدة طوال الطريق.

عبرت الممر الضيق إلى مكتبي، كان الجورنال خاليًا من أي حياة، فمكان بلا بشر، هو مكان بلا روح، لكن دائمًا "السعاة" هم أول مَن يقع عليهم نظرك إذا قررت الذهاب لعملك مبكرًا"، وهم أنفسهم آخر من تقع عليهم عيناك إذا غادرت عملك متأخرًا"، كان "عم حسين"، ساعي الدور الثاني الذي يحوي مكتبي قد رآني، فألقى عليّ التحية الصباحية وهو ممسك بـ"مقشته" بعد أن توقف عن كنس الأرضية كي لا أصاب بسُحب الغبار، رددت عليه التحية، ودلفت إلى غرفتي بتثاؤب، جلست خلف المكتب ورفعت رأسي لصفحة السقف الشاسعة، وبعد لحظات لم تطل جاءني قرار الكتابة، جذبت قلمي من رأسه، ثم كتبت بمنتصف صفحتي البيضاء "أوطان بلون الفراولة"، وبدأت الاندماج انطلاقًا من العنوان، لم أتوقف لحظة واحدة، و لم يتعثر قلمي بحرف واحد، بل انسابت الكلمات كصعود الروح الطيبة للسماء، وقبل أن أضع نقطة النهاية، سمعت طرقات "عم حسين" فسمحت له بالدخول، رأيته يحمل بين يديه صينية مستطيلة انتهى بها أمامي، لكن لم يكن عليها فنجان القهوة الذي اعتدت على احتسائه كل صباح، فنظرت إليه مستهجنًا:

– ما هذا يا "عم حسين"!

- كما ترى، كوب من اللبن و"سندويتش" جبن.
- حسنًا". لكن أين القهوة؟
- حضورك المبكر جعلني أُخمِّن بأنك لم تتناول إفطارك بعد.

لا أعلم لِمَ منعت نفسي من الانفجار ببكاء داهمني بتلك اللحظة، أردت فيها أنَ أرتمي بأحضانه، وأصرخ فيه بأعلى صوتي كي يضمني إلى صدره، ويُربت بيديه على ظهري المقسوم بفعل الدنيا، لكني تماسكت بصعوبة بالغة، ثم وجَّهت نظري إلى وجهه الأسمر، وبصوت شابته حشرجة خفيفة:

- شكرًا" يا "عم حسين".

أخفيت وجهي في الأوراق، ثم وضعت نقطة النهاية، ناولت الأوراق لـ "عم حسين":

- سلمها لرئيس التحرير إذا سمحت.
- تأمر بشيء آخر.
- أشكرك.

انغلق الباب، وبات الجو مهيئًا للانفراد بالنفس – آه – من قسوتها تلك المتعجرفة بالألم، كم تمنيت أن ألقي بها في البحر، لكنها هي المتسلطة لا تمنحني أن أتمادى في الوهم، لا تتركني لحظة واحدة تلك المستبدة لالتقاط أنفاسي، بل تفتح عليّ دائما "هاويس" التساؤلات، وقد كان السؤال يؤجج جسدي المنهك، يحصد منه ويأكل، لماذا لم أنم في فراشي ليلة أمس؟ وقفت أمام نفسي في استسلام، خفضت رأسي وأنا أبحث عن إجابة تقنعها، ربما أخذني الوقت دون أن أدري، كانت تلك الإجابة التي

وقعت عليها، لكن هل ستقتنع نفسي بتلك الإجابة الساذجة، أعلم جيدًا أنني أتخابث عليها، بينما الحقيقة ماثلة أمامي في إجابة واحدة، خوفي من افتقاد الحلم، نعم تلك هي الحقيقة أيتها النفس المتجبرة، أقولها لك دون أدنى خوف أو قلق، فأنا كما أنا لن أتغير ولن أغير ملامحي المفعمة بألق الأحلام.

6

قفزت دقات على بابي المغلق من وسط وقع الأقدام المتلاحقة بالممر، انتفضت وكأن هناك مَن أيقظني من حلم عميق، هكذا هي الدقات دائما ما تضعنا أمام الواقع المستطرق، فنطفو على سطح واحد لا خلاف عليه، لكن تظل وجوهنا متعددة الملامح، فرح، حزن، خوف، سكينة، وقسمات قهر، ستظل ملامحنا تبحث عن صورتها الحقيقية، وسط عباب تلك الهواجس المتهالكة، أذنت للطارق بالدخول:

– صباح الخير أستاذي.
– أهلا دكتورة "سهام".
– دعني أمسك الخشب.. ما هذا النشاط؟
– هو يوم أراد أن أكون فيه هكذا.
– الله الله وشعر أيضًا؟!
– منه نبدأ وعليه ننتهي.

- ما هذا؟
- ماذا؟
- لأول مرة أرى ستائرك مُسدَلة.

اتجهت ناحية النافذة وأزاحت الستائر، جذبت نفسًا عميقًا من الخارج، ثم استدارت نحوي وهي تسند ظهرها للحائط وأردفت بتردد:

- يعزُّ عليّ أن أعكر صفوك أستاذي.
- هات ما وراءك يا "سهام" ولا تقلقي.
- لا أعلم ماذا أقول؟ فأنت أستاذي صاحب الفضل.
- منصبك كمديرة تحرير وصلتِ إليه بجهدك يا "سهام".
- لكن..؟
- هات ما عندك يا "سهام".
- ليس قبل أن تعدني بأنك لن تنزعج.
- أعدك... هيا، قولي ما تخفينه.
- رئيس التحرير.
- ما به؟
- صادر مقالك.
- ماذا؟!

انفجرت واقفًا نثرت كل شيء خلفي، مكتبي، كتبي، أوراقي، و"سهام"، رأيت باب مكتبه شاخصًا أمامي، ركلت أنفه بكل قوة، فقفز واقفًا وهو يغمس سيجارته بالمنفضة، صفعت سطح المكتب براحة يدي اليمنى، وانهلت عليه بالسؤال:

- لماذا صادرت مقالي؟
- من فضلك اهدأ.
- أجب عن سؤالي.. لماذا صادرت مقالي؟
- اجلس من فضلك وسأشرح لك الأمر.
- ....
- اجلس إذا سمحت..
- ها أنا جلست.. تكلم.
- يا أستاذي العالم كله على صفيح ساخن، ولسنا في وقت يسمح بالحديث عن القوميات.
- عن أية قوميات تتحدث؟
- مقالك يرسخ فكرة القومية العربية، وهي فكرة يسارية.
- وما المشكلة؟
- العالم كله يتجه نحو اليمين، وأنت تكتب عكس التيار.
- تقصد أمريكا.. أليس كذلك؟
- وهل هناك مَن يختلف على ذلك؟
- للأسف لن تفهم أبدًا، ستظل كما أنت.. ببغاء يا "خالد".
- لا أسمح..
- لا تقاطعني.. أنا من دفعت أبي ثمنًا لفكرة القومية العربية، عندما تركني طفلا لم يتجاوز عمره العامين ورحل إلى حرب "اليمن".. أنا من عشت معذبًا فاقدًا لحنان الأب وليس أنت، أنا من عشت على أمل العودة، ومرارة الحرمان وليس أنت.. ولن تذهب دماء أبي هباء.

- مهلا.
- أما زلت مصرًا على مقاطعتي؟
- أعتذر. لكننا نعمل بجريدة.
- حكومية.. أليس كذلك؟
- نعم.
- لم أخطئ إذن عندما قلت عنك إنك مجرد ببغاء.
- أنت عنيد، وعنادك هذا..
- عنادي هذا أدخلني المعتقل مرتين، وأجلسك هنا.
- لكنك ندمت على تلك الفترة، وغيَّرت مسار كتاباتك.
- لم أندم لحظة واحدة وأنا ما زلت أنا.
- "ضياء".. صدقني يحزنني أمرك.
- وأنا مشفق عليك.
- ....
- استقالتي ستكون أمامك بعد لحظات.

غادرت مكتبه لأجد نفسي أنزلق لطريق اللاعودة، فقد كان انفجارًا لا بد وأن يحدث يومًا ما، بعد أن استفحل ركام الصمت داخلي، تعلق نظري بنهاية الممر الطويل، همهمت بصوت مسموع: لكم هي قريبة تلك النهايات، توقفت أمام باب مكتبي، أمسكت بالمقبض الضخم، وقبل أن أستدير به للدخول، اتخذت قرارًا" آخر بالرحيل.

7

بالمقهى أرى كل شيء بشكل آخر غير ذي قبل، الأضواء، الجدران، الأرضية، الطاولات، يتشح المكان ببريق ساحر يتبختر بالأجواء، يكشف كل ما تحويه الأنفس الرابضة، ويبرز العروق العامرة بالدماء، ينبش هياكل العظام المتداخلة، فتبدو الأجساد أكثر لمعانا ووضوحًا، تفحصت وجوه الجالسين باحثًا عن وجهها الذي ألِفْته وألِفَني، لكن لم أعثر عليها بينهم، فجلست جوار الجدار الزجاجي المَطل علَى شارع "عدلي"، وطويت كل الأحداث الشاذة خلفي، الآن فقط شعرت أن الثقل قد سقط عن أكتافي، لأكتب وأكتب وأكتب دون كلل أوملل، أو ما يزاحم مزاجي بكتل هائلة لا حاجة لي منها سوى أني أتعثر بها ذهابًا وإيابًا، آثرت التفرج على مَن يتجولون بالخارج، تتصارع خطواتهم مع أرضية الشارع العتيقة، فتغرس أوتاد البقاء، وبراثن الإصرار، رغم أكفان الهموم التي اعتلت رؤوسهم المُثقلة بالوجع، يأكلون الصمت العالق بالجدران، ويؤنسون أنفسهم بابتسامات الحياة.

شبَّ النوم بعيني فطوّحت رأسي يمينًا فيسارًا علّه يتساقط، لكنه سرعان ما عاد ليسكن بين جفوني، شعرت أنني أُسحب عن جسدي بعيدا إلى دنيا بلون البحر، فأسندت رأسي على الجدار الزجاجي، حيث وصل تحمُّلي إلى طريق مسدودة، كل الأجسام أراها تتموَّج، تنسلخ عن ذاتها ثم تعود، حاولت إقامة رأسي بين كتفي لكنه كان أثقل من كل عضلاتي، فأرْديته منبسطًا في سلام، فما بالي أقاوم الانسحاب وقد فقدت كل شيء؟ روايتي، شخوصي، عملي، وحلمي المعلق بين الموت والحياة، لكنني تعوَّدت دائمًا أن أرتفع وأرتفع، أفرد روحي كما النوارس، وأحلِّق فوق رؤوس الشهب، لكنني سرعان ما أقع فتلتهمني الأرض بأحشائها، أغمضت عيني وتركت أنفاسي تنساب بالأعماق، فألقاني التيار هناك بنفس المكان، عند أقدام الطفل المغرد بأصبوحات الأمل، يشق الطموح ويصنع من خيوط العناكب سيورًا من ذهب، عند البحيرة كان يقف ليرسم الحلقات المضيئة بالمياه، يحتضنه جده ويجفف رأسه بعباءته السوداء، يعلق الكيس القماشي بكتفه النحيل، وهو يتفقد السماء الشاسعة، ثم يصوب طلقات بندقيته نحو أسراب الطيور المهاجرة، فيعدو الصغير بين الأحراش، يسابق الموت والرصاصات، يجمع حصاد الطيور الجريحة، يذبحها فتتلطخ يده بالدماء، ثم يعود فرحانًا بكيس امتلأ بالموت، يصرخ كلما انطلقت الرصاصات، ويركض بين الأحراش، ليعود حاملا الموت على كتفه، ذات ليلة أخذه غروره، فسرق بندقية الجد وخرج وحيدًا" إلى البحيرة ليصطاد الديك الذهبي الذي يحرس الكنز، اقترب من الشاطئ دون أن يطأ قلبه الخوف لحظة واحدة، كانت البندقية أطول من قامته، لكنه أصر أن يكون

أكبر وأضخم من كل شيء حوله، وفجأة ودون سابق إنذار تهاوت عليه الطيور من كل مكان، كانت طيورًا" بيضاء ملطخة بالدماء، ركض هاربًا " نحو الأحراش، صوب نحوها البندقية، أراد أن يطلق الرصاص، لكنها كانت خاوية، ألقى بها من يده، تعثر، ارتطم وجهه بالأرض، صرخ بكل قوة، صرخ وصرخ، لكنه عندما استدار للدنيا لم ير غير القمر، فعاد إلى منزله محملاً " بالخوف.

كانت يد تقترب مني عندما تبددت الغشاوة أمام عيني، قبضت عليها وأنا أبعد رأسي المنهك عن الجدار الزجاجي، بدأت ألملم الرؤى حتى بانت أمامي بكل تفاصيلها، شعرها الأسود، وجهها القمحي، عيناها، بسمتها الشفيفة، حدقت في وجهها، ثم أخذت في فرْك عيني بقبضة يدي اليمنى، أعدت التحديق، أطرقت قليلا ثم انطلقت قائلا:

– "نجوى"!

ابتسمت في وجهي قائلة:

– هل عفريت منامك اسمه "نجوى"؟

ارتبكت قليلا، ثم عقّبت عليها بلهجة شابها التعب:

– أعتذر يا "نداء".

– أكان حلمًا "مزعجًا"؟

– بل كان "كابوسًا".

– كان جسدك ينتفض.

– منذ متى وأنت هنا؟

– منذ خمس دقائق تقريبًا.

- تشربين قهوة؟
- أشرب قهوة.

بادلتني نظرة طويلة ثم ضحكنا معًا، رفعت رأسي باحثًا عن النادل، ثم ناديته:

- يا.... يا...؟
- اسمه "طاهر".
- يا "طاهر"؟

تقدم نحونا بخطى مهرولة راسمًا " ابتسامته العريضة، وجهت نظري إليه قائلًا":

- فنجان قهوة، وآخر شاي لو سمحت.
- تأمر بشيء آخر؟
- لا. شكرًا.

انصرف النادل وهو يدوّن ما أمليته عليه بدفتر صغير، شعرت بصداع شديد يهاجم مؤخرة رأسي، أفقدني بعضًا من توازني، ففردت أصابع يدي اليمنى فوق موضع الألم، ثم تنهّدت متأوهًا، فرمقتني "نداء" بنظرة احتوتني ثم أردفت بقلق:

- ما بك أشْعُرُك مرهقًا؟
- نعم. قليلا.
- قل لي ما بك؟
- لا تقلقي.. الأمر بسيط.
- كيف وأنا أرى وجهك قد كساه الإرهاق؟

- فقط لم أنم ليلة أمس.
- لَمَ؟ هل هناك مشكلة ما؟
- لا أبدًا. بالأمس لم تكن عندي مشاكل.
- واليوم؟
- أمر بسيط.
- وهو؟
- فقط تركت عملي.
- والسبب؟
- بل هي أسباب كثيرة.
- لكن مؤكد أن هناك مليون جريدة تتمناك.
- لا أعلم صراحة.
- تاريخك الصحفي حافل يا ضياء.
- دعك من حديث النادل عني فهو مبالغ.
- النادل لم يخبرني بشيء عنك سوى أنك كاتب.
- إذًا لَمَ تقولين ذلك؟
- بحثت عنك.
- أين وكيف؟
- بحثت عنك على الشبكة الإلكترونية.
- صراحة لا أستعملها، ولا خبرة لي بها.
- معقول يا "ضياء" العالم كلـ..
- أعرف ما ستقولينه، لكني بعيد كل البعد عن مثل هذه الأشياء.

- حقًا غريبة.
- لا تستغربي وحدثيني.. ماذا قالت لك الشبكة الإلكترونية.
- قالت لي الكثير عن حياتك ومؤلفاتك ومقالاتك الثورية ووو..
- وماذا؟
- واعتقالك.

صدمتني الكلمة للحظات، ثم تسللت إلينا تعويذات الصمت، كنت أسترجع فيها تلك المشاهد المريرة التي عشتها تحت وطأة القهر، لكنها قاطعتني بلهجة زائغة:

- يبدو أن المعتقل هو قاسم مشترك بيننا يا صديقي.
- وهل سبق لك الاعتقال؟
- نعم اعتقلوني.
- بالعراق؟
- ليتها كانت.
- إن لم يكن بالعراق فأين إذن؟
- لا تشغل بالك يا صديقي، فربما أكون قدرًا هبط عليك.
- لا تضعيني في الحيرة.. وحدثيني عن نفسك.
- سأفعل لكن ليس الآن.
- لَمَ ليس الآن؟
- لَأن ابني تركته مع جارتي.
- هل أنت متزوجة؟
- لم أتزوج قط.

رمقتها بنظرة شابها القلق، فأومأت لي برأسها:

- لا تقلق لست بعاهرة.
- أنت مُحيِّرة.
- دعني أرحل.
- أين تسكنين؟
- أسكن بمدينة 6 أكتوبر.
- يااااه. وماذا أتى بك إلى هنا؟
- الطبيب.
- أمريضة أنت؟
- صدقني لا أعرف.
- أعتذر لتدخلي، لكنك تثيرين فضولي.
- لا تعتذر لكن يجب أن أرحل الآن.
- متى سألتقيك؟
- غدًا لدي موعد آخر مع الطبيب.

لملمتْ أشياءها من أمامي في عُجالة، وانطوت عن أنظاري وسط الزحام المتكاثف، كان الصداع قد تملكني، فاحتسيت آخر رشفة من فنجان الشاي، ثم وضعت الحساب على الطاولة، ورحلت.

8

دلفت إلى الصالة الرئيسية بعد ما أوْصدتُ الباب من خلفي، نظرت إلى كتل الأثاث المتناثرة هنا وهناك ثم تنهدت قائلا:

ما بال أركانك قد خلت من كل آلاء الحياة؟

توقفت أمام جدار يحمل صورة لأبي ببزته العسكرية، تأملت ملامحه، شابًا يافعًا، وسيمًا، يرسم ابتسامته لكل مَن يُقرِئه السلام، اعتصرت ذاكرتي لأسمع نبرة عابرة من نبرات صوته، أو أن ألَمح رفيف طيفه يلتفت نحوي، لكنه ما زال ظلالا وخيالات متقطعة، احتضنتها وعشت عليها طيلة حياتي، مسحت زجاج الإطار بطرف معطفي، وجلست على مقعد بأخر الصالة، كشفت من خلاله المساحة الممتدة للمنزل، كنت أسمع وقع أقدام أمي على الأرضية الخشبية، ورأيت وجهها مطبوعًا على كل الجدران المنتصبة بكل مكان، صوتها يعلو ويعلو، لكن أين هي؟ بحثت عنها كثيرًا لكن لا شيء أتعثر به إلا أنا، حقًا كم أشتاق إليها.

سرت رعشة خفيفة بجسدي عندما اقتربتْ من غرفة نومي، أضأت المصباح، تطلعت في الفراش وأنا أتوجس خيفة، فوجدته خاليًا، ابتسمت بأسى لضياع أحلامي. ارتديت ملابس نومي، أعدت إغلاق المصباح، ثم ألقيت بجسدي على السرير، لكن شريط الأحداث الماضية ظل يمور في وجداني، يتخم جفوني كما النوم، ويملأ الظلام حولي بوميض الأرق، لكني كنت أشعر براحة تغمرني، لرضا يكمن بنفسي الحالمة، جعلني أستعيد لحظات لقائها، وأعيد قراءة التفاصيل لأكبت فضولي الذي ألقيته أمامها يتضورّ جوعًا، و لم ترحمه بل تركته ينحت من دوامة التساؤلات، فهل هي اللغز القادم الذي سيملأ عليّ صفحاتي الخالية؟ فأكتب وأكتب بما يسد عين طموحي؟ أم أنها مجرد عابر قذفته اللحظة وانقضى؟ لكنها لن تنقضي ولن أسمح لها بالانتهاء، غلفتني الطمأنينة لهذا الإصرار الذي انتابني، فبدأ الخدر يشق رأسي لأفارق الواقع وأطرق أبواب نوم ينتظرني منذ ليلة وضحاها، ولكن لا تأتي الرياح بما أشتهي، فقد قطع دوي الهاتف أوج الغفلة، مددت يدي من أسفل الغطاء، وسحبت السماعة بتثاقل:

- آلو؟
- مساء الخير أستاذي.
- مساء النور. أهلا "سهام".
- هل أزعجتك؟
- لا أبدا لم أنزعج.
- اتصلت بك كثيرًا.
- عدت للمنزل منذ قليل.

- هل أنت بخير؟
- ما زلت أتنفس.
- لقد قدمت لك إجازة عارضة.
- ماذا؟
- وددت لو تصرف النظر عن الاستقالة.
- هو قرار وانتهى يا "سهام".
- ليس قرارك وحدك يا "ضياء" .
- كيف؟
- لك قراء يشاركونك.
- عندك حق لكن..
- أرأيت؟ أنت تعترف بأن الحق معي.
- نعم أعترف. لكني لن أعود.
- أتمنى ألا تأخذ قرارًا الآن.
- بل اتخذته بالفعل.
- أنت الآن في إجازة. فكر في الأمر.
- بالفعل احتاج للتفكير في أمور كثيرة.
- المهم أن ينتهي بك إلى العودة.
- أشكر اهتمامك يا "سهام".
- "سهام" لا تنتظر من أستاذها كلمة شكر.
- وماذا تنتظرين إذًا؟
- انتظر عودتك بأسرع وقت.

- انتهى الأمر يا "سهام".
- لا تقل شيئًا الآن. تصبح على الخير.
- وأنت من أهله.
- مع السلامة.

أمسكت بسماعة الهاتف، حاولت التفكير فيما قالته "سهام"، لكن سلطان النوم كان أقوى بكثير من أية محاولة، أعدت السماعة إلى مكانها، ثم أسندت رأسي على الوسادة، أحكمت الغطاء، و..

9

كانت تقذف الدخان من فمها فوق رأسي، تتحدث بلهجة شابها التمرد، تسخر من كل شيء حولنا، لم تترك واحدًا من الجالسين إلا ووجهت له الانتقاد، رجلا كان أم امرأة، لم ترحم ملابسهم، ولا أربطة أعناقهم، ولا حتى أحذيتهم، فتعالت ضحكاتها بشكل لافت للنظر أصابني بالخجل، وأصاب الحاضرين بنظرات الامتعاض، ظننت من الوهلة الأولى أنها قد تكون مخمورة، فلم تكن هي الإنسانة المتوازنة التي عرفتها وتحدثت إليها من قبل، بل كانت أشبه بفتاة مراهقة، تتعامل مع كل شيء بلا مبالاة، لا يهمها كون كائن، ولا تعبأ بمن حولها، تتصرف أحيانا كالأطفال، وأحيانًا أخرى تترنَّح كعجوز يثير الشفقة، كنت أرقبها في ذهول علَّها تتماسك وتعود لصوابها لكنها كانت تتمادى. وضع النادل أطباق الطعام أمامنا فأخذت تأكل بشراهة، تمرر يدها بكل الأطباق دون وعي، ثم توقفت فجأة عن التقام الطعام، وأخذت تتأمل المارة بالخارج،

فقاطعتها متحدثًا:

- طمئنيني. ماذا قال لك الطبيب اليوم؟

توقفت عن مضغ الطعام الذي كان لا يزال بفمها، ثم نظرت إليّ في شرود:

- قال إنني مريضة بسرطان الكبد.
- سرطان!
- فلنذهب لطبيب آخر إذن.
- لا تتعب نفسك.
- كيف؟
- الفحوصات كلها تؤكد ذلك.
- لابد وأن تقاومي.
- من أجل ماذا؟
- من أجل ابنك.
- ابني ...؟
- نعم ابنك.
- ابني سيحيا بموتي.
- هل عدت لغموضك؟
- لم أكن أبدًا غامضة.
- ما يهمني الآن كيف سنتصرف بخصوص مرضك؟
- سأدخل المستشفى بعد يومين.
- لَمَ المستشفى؟

- لتلقي أول جرعة من العلاج الكيميائي.
- علاجك هو الإصرار على الحياة.
- الحياة لا تهمني. فما يشغل تفكيري شيء آخر.
- وهو؟
- إرث لابني ؟
- إرثه من مَنْ ؟
- إرثه مني وستصنعه أنت.
- أنا؟! كيف؟!
- أريدك أن تكتب حقيقتي لأتركها له.
- كم هي غريبة تلك الدنيا.
- لِمَ تقول هذا الآن؟
- منذ لحظات كنت أتوجك بطلة لرواية ما زلت أبحث عنها.
- ألم أقل لك إنني قدر هبط عليك من السماء.

رسمت ابتسامة خفيفة على وجهها الشاحب، وألقت نظرة طويلة خارج الجدار الزجاجي، ثم استدارت نحوي في صمت، فتنهدتُ قائلا:

- بأي مستشفى ستتلقين العلاج؟
- بقصر العيني الفرنساوي.
- ستطول إقامتك هناك؟
- سأتلقى الجرعة وأخرج في نفس اليوم.
- لا تقلقي.. فأبطال رواياتي أقوياء.

ابتسمنا معًا، وعدنا لأطباق الطعام، ثم اخترقتنا لحظات ساكنة، قررنا

بعدها الرحيل إلى حيث اللا مكان، فاحتوتنا شوارع كثيرة، وأخذتنا منعطفات كثيرة حتى توقفت خطواتنا عند مفترق الطرق، فنقضنا أصابعنا المتشابكة، ثم افترقنا.

القسم الثاني



1

الجرعة الأولى

لم أكن أعلم أن تلك الدنيا قاسية إلى هذا الحد، شعرت لأول مرة أنني أسقط لأعلى أو أنِّي أسير على رأسي في الاتجاهات الأربعة، لا أعرف مَن أنا، أو مَن سأكون، أتأرجح بين الوجود والعدم، وأسكن الفتات المتناثر على نوافذ الحجرة الغائمة، أرى جثة أبي الممددة على السرير كما أرى نهاية العالم، فتخللتني أحلام هائجة للمجهول، بعد ما شعرت أنني سأعيش في هذا القبر وحيدة بلا رفيق، لم يكن البكاء غايتي في تلك اللحظة، أو حتى الاتشاح بالسواد، كنت أفكر في أمي التي ماتت وأنا أتربع في أحضانها طفلة لا تعي معنى الموت، قال لي أبي إنها صعدت في نزهة للسماء وغدًا ستعود، لكنني اليوم لم أجد مَن يُربِت على كتفي ويقول لي بأن أبي صعد هو الآخر لنزهة للسماء وسوف يعود، أيقنت الآن فقط أنه كان يخدعني، لأنه لن يعود، كما لن تعود أمي أبدًا.

كان يجب أن أخبر إخوتي في بغداد بوفاة أبيهم، لكن شيئًا ما كان يمنعني، فجعلني أترك خاطري للريح لأعيد التفكير في حياتي الماضية، قبل أن أُوَرِّط نفسي في حياة جديدة ربما تبدأ من لحظة الاتصال بإخوة لم أرهم أبدًا من قبل، و لم أتحدث إليهم إلا مرات معدودة من خلال الهاتف، حاول أبي أن يُقربني إليهم عندما شعر أن المرض قد تملكه، ورغم أنه مثلي تماما لم يكن يعلم عنهم شيئًا بسبب العزلة التي فرضتها عليهم زوجته، فإنه كان يحدثني عنهم كأنه عاش معهم وعكف على تربيتهم بنفسه طوال السنين الماضية، لكنني كنت أشاركه الحلم وأعبر معه المسافات لأقترب منهم وأمرِّن نفسي على تقبلهم، فأنا وهو كنا نبحر معًا في قارب واحد إلي حيث اللا وطن، وبالرغم من أنِّي لم أر بغداد من قبل، و لم يسبق لي تنفُّس عبقها للحظة واحدة فإنني عشت فيها، وصلَّيْت بمساجدها، وتنزَّهت بين شوارعها، ولعبت مع أطفالها، وبعثرت ثُراها، ومن أجل ذلك أعيش غريبة في بلدان ولدت بها وعشت فيها، لكني بأية حال لم أقبلها كوطن بالرغم أنني أحمل الجنسية "الهولندية"، لكن وطني العراق انطبع على ملامحي، فكان كل من يراني لأول مرة يسألني السؤال ذاته: هل أنت من أصول عربية؟ أحيانًا؛ كنت أجيب بفخر، وأحيانًا كنت أجيب بتمرد، وأحيانًا أخرى كنت لا أنبس ببنت شفة، فأستكين لاهية مع ذاتي، فماذا تنتظرون من فتاة كُتب عليها التمزق منذ لحظة ميلادها فألقاها القدر لأب وأم مطاردين، ووطن استعارته من حكايات الفراش، ولغتان لوجهها الواحد، وفي النهاية كنت أنا؛ دمية تُحرِّكها الحبال فترقص وتضحك

وتقفز، وتصرخ، وتنام،وتصحو، لكنها إن سكنت عادت كما هي مجرد دمية بلا حياة.

"الداء العضال يحتاج إلى دواء فعال" قالها سقراط ورغم ذلك أُعْدِمَ بالسُّم.

لكن الهروب كان هو الدواء الفعال لدى أبي، ولا شيء غيره بديل عن الموت، فضاق أمامه العالم كله كسَّمِّ الخِياط، فإلى أين المفر من مخالب البعث؟ لكن حرصه على الحياة فتح أمامه آفاقا رحبة، فهرب إلى "روسيا" تاركا خلفه زوجة وثلاثة أطفال، دافعًا بذلك ثمن أفكاره وانتمائه إلى الحزب الشيوعي العراقي المناهض، لم يكن يعلم أنه لن يطرق أبواب بغداد بعد هذا اليوم، لكنه أمضى حياته منتظرًا على جسر العودة، وظل هذا الجسر ممدودًا، حتى بعد انفراد "صدام حسين" بالسلطة عام 1979، حصل أبي خلال هذه الفترة على الدكتوراه في الهندسة النووية من جامعة موسكو عام 1975، وكان قد تزوج من فتاة مغربية تعرَّف إليها خلال فترة الدراسة، أحبها وأحبته، حملت همومه كما حمل همومها، فكلاهما يشربان من نفس القدح المليء بأحجار الخوف والضياع، فـ "جميلة" هي؛ ابنة لأحد المناضلين السياسيين، فرت بها أمها إلى موسكو خوفًا أن تطالها يد السلطة المتجبرة بالمغرب آنذاك، بعد اعتقال أبيها أثناء سنوات الرصاص، والزج به بمعتقل "درب مولاي الشريف"، ثم لحقتهم أنباء موته بسبب ما وقع عليه من تعذيب بعد ذلك، نشأت "جميلة" على صدى النضال، فعاشت عمرها تحلم بمدينة خالية من الدماء والنار، تُعلِّق على

أبوابها موازين العدل والرحمة، وتعتلي أبراجها الرايات البيضاء، لذلك كانت لا تترك منظمة حقوقية إلا وكانت ناشطة فاعلة بها، تمنت أن تأخذ ثأر أبيها بعموم الإنسان، وكنت أنا الثمرة الحلوة التي ولدت بينهما في أرض الهروب، قال لي أبي إن يوم ولدتني أمي أقسمت بأنها لن تسمح لي بأن أكون فتاة عادية أبدًا، لكن الموت كان أسرع إليها من آمالها، ماتت أمي وغابت عن أيامي، تركتني أكتوي بلظى الوهم، أعيش على أرض مهترئة، فتاة مغيَّبة عن ملامح المستقبل.

لملمني أبي وطار إلى "هولندا"، ليواصل طريق الهروب من جرعة الموت المنتظرة، فقد حمل إليه أحد زملائه المقربين رسالة شفهية من النظام العراقي، بأن يعود إلى بغداد آمنًا، وفي المقابل يشترك في إنشاء البرنامج النووي العراقي. لم يكن فزع أبي من فحوى الرسالة ذاتها، بل لشعوره بأنه كان مكشوفًا لهم طوال الفترة الماضية، فهم يتربصون به في انتظار اللحظة المناسبة لاستهلاكه ومساومته على الحياة.

واصل أبي هروبه إلى "أمستردام" وهو على يقين بأنهم ينتظرونه في كل مكان، لكنه كان لا بد وأن يهرب، ربما من أجل الهروب في حد ذاته، معتقدًا أنه سيطرد عنه الأرواح الشريرة، وأخذت حياتنا في هولندا بُعدًا آخر، أكثر عمقًا واستقرارًا، فيبدو أن فكرة الهروب لمباركة طرد الشياطين نجحت هذه المرة، فعمل أبي مدرسًا بجامعة "أمستردام"، وأقمنا ببيت عتيق قريب من (Dam Square)، وكان للمكان دور مهم في شعور أبي بالطمأنينة، وكأن للأصالة وقْعُها الساحر على النفس فغمرتها بالألفة والسكون، فأرسل إلى زوجته "إنعام" ببغداد، بأنه قد حان الوقت

للَمِّ الشمل، لكنها رفضت بشدة واتهمته بالخيانة لزواجه من أخرى، وأقسمت بأنه لن يرى أولاده طوال حياته، فأغلق أبي هذا الباب خوفًا من عواقب كيد النساء، فابتعد نهائيًا عن الحياة السياسية، وقطع علاقته بالحزب الشيوعي، وتفرَّغ لرسالته العلمية وتربيتي، فنشأت أعرف معنى الصبر، وأعي ما يدور بكواليس الحياة عن قرب، فعِشت أمًّا وزوجة، وطفلة، حتى صعدت إلى الواقع فتاة حديدية.

2

كنت أظن أنني الوحيد الذي يُعذَّب على وجه الأرض، لكن "نداء" وضعت عيني على أناس لم ألتفت إلى تأوهاتهم طوال الفترة الماضية، و لم يخطر ببالي أن هناك مَن يُكوَى جلده مثلي. اليوم فقط علمت أن هناك مَن يتلقَّى عذابًا أدهى وأمَرَّ من كل عذاباتي، ربما لأنني استسلمت سريعًا، وآثرت العيش داخل ذاتي، فلم أعد أشعر إلا بوجعي وحدي، أتقوقع عليه وأصنع منه لفافات من الألم أحشر فيها نفسي وأتكيَّف معها؛ فصار الألم حليفي المُدّلل، فما أحلاه مع فنجان القهوة، وما أشهاه مع لقمة العيش، وما أجمله رفيقًا بالفراش، فمن يُجرِّب ألمي يومًا، سيحسدني عليه الدهر كله.

لمحت في عينيها دموعًا تأبى التحرر، فوددت أن أصرخ في وجهها لتُخَلِّص جسدها من تلك السموم، لكنني عهدتها الصابرة الصامدة، التي ترحب دائما وبكل شجاعة بالقادم الأسود، إنما هو البوح بالعذاب من فوق فراش المرض، أحيانًا ما يصيبنا بالبلاهة، فيجمع عواطفنا في ركن

واحد فقط نرى من خلاله الدنيا بوجهها العَفِن، فتعز علينا أنفسنا ونتذكر بكل قوة أن اللـه لم يخلقنا ضعفاء.

خلدتْ إلى نوم عميق.

استدعاني الطبيب المعالج بمكتبه، أخبرني بفداحة المرض الرابض داخلها، وأن كل ما يفعله هو مجرد محاولات لوقف الانتشار، وتسكين الألم، ولذلك يجب تكرار جرعة العلاج كل ثلاثة أسابيع، أخبرني بذلك وهو يحدثني من بين نظارته وأنفه، وقد رسم على وجهه معا لم الأسى، لكنني تسمَّرت أمامه صامتًا دون أن أعلق بكلمة واحدة، اعتدنا أن نعلق مصائرنا على الموت لمجرد مرض تافه اعترانا، نتركه يصول ويجول داخلنا حتى يتجبَّر، فيكون أقوى من كل السياسات، والآلات الحربية، لكن هو القدر الذي يفرض علينا تلك المتاهات، فنظل نبحث عن أجزائنا الصحيحة، لنجدد خلايانا الفاسدة، لكننا في النهاية نجلس جوار جدار منهارٍ نستجدي منه الظل، ولا نفكر لحظة واحدة أن نهدم بقاياه، لنعيد البناء من جديد. فماذا لو فعلنا ذلك بأجسادنا المريضة؟ لكن مغامرة الهدم لا تعطينا الضمان لإعادة البناء، فالهدم ربما معناه الموت، وموت الأجساد فناء لها، لكن كثيرًا ما ننسى أن الروح هي باقية، لذلك سمحت للطبيب بأن يُثرثر دون أن أشحن نفسي بالضيق، لكن سؤالا خطر ببالي فقاطعته:

- هل ستموت؟

خفض رأسه لأسفل مبديًا أسفه الشديد.

كانت "نداء" قد استيقظت، وارتدت ملابسها استعدادًا للرحيل،

نظرت إليّ بابتسامتها الحانية، ثم مدت يدها نحوي، لا أعلم لم تذكرت رقصة "التانغو" في تلك اللحظة؟ لكن اللحظات السعيدة لا تنفك عنا، فنظل لها خانعين نتركها تحركنا كيفما شاءت، وتعود بنا من حيث أتت، انتشلت نفسي من بين أوهام الصدى، احتويت وجهها بكامل وعيي، بادلتها الابتسام، ثم التقطت يدها دون تردد.

تقيَّأتْ كل ما بجوفها بعد أن أنزلنا سائق التاكسي أمام مسكنها، كانت تعاني من إعياء شديد، فقبضت على يدها وأسندت جسدها بيدي الأخرى، جاهدتْ حتى صعدت الدرج، توقفت بي أمام شقة جارتها، فخرجت علينا بعد أن طرقتُ الباب، كانت تحمل بين يديها طفلا صغيرًا، توقعت أن يكون ابن "نداء" الذي حدثتني عنه، استقبلتها الجارة بلهفة شديدة، وغمرت وجهها علامات القلق لما بدت عليه من حال، كان رجل يقف بخلفية المشهد وبجواره طفلتان صغيرتان، علمت بعد ذلك أنه زوج جارتها، تلقَّف الطفل من يد زوجته، ثم أمرها بأن تسندها بدلا، عني وتصحبها إلى شقتها لترتاح بفراشها، امتشقت "نداء" نفسها من بين أوبار التعب، ثم أزاحت الغطاء برفق عن وجه طفلها، نظرت إليّ مبتسمة، ثم أردفت بصعوبة:

– "قاسم".. ابني.

قاطعها الرجل مُرَحِّبًابي، ثم مد يده يصافحني:

– أهلا أستاذ "ضياء" حدثتنا عنك "نداء" كثيرًا.

– أهلا بك.

– "إبراهيم عبد الفتاح".

- أهلا وسهلا أستاذ "إبراهيم".
- تفضل نحتسي الشاي معًا.
- أشكرك.
- تفضل يا رجل، استرح من الدَّرج.

تقدمت داخل الشقة وسط كلماته المُرحِّبة، أجلسني بركن الصالون، وغاب عني للحظات تفحَّصت فيها حدود المكان، ثم عاد بصينية عليها فنجاني شاي، وضعها على الطاولة وجلس بمواجهتي، كان لا يزال حاملا الرضيع على كتفه، والطفلتان إلى جواره، أومأ إليّ برأسه مزيدًا من الترحيب:

- شرفتنا أستاذ "ضياء".
- شكرًا لك.
- قرأت لك الكثير.
- جميل أن هناك مَن يقرأ في زمننا هذا.
- عندك حق، فلم يعد هناك مَن يهتم بالقراءة.
- بكل أسف.
- رغم اختلافي مع أفكارك بالفترة الأخيرة، فإنني ما زلت أقرأ لك.
- وما وجه الاختلاف؟
- هناك الكثير من الهموم تستحق أن تكتب عنها.
- عفوًا.. لا أفهمك؟
- بعدت عن الناس كثيرًا.

- وأين أنا الآن؟!
- ....
- عذرًا مضطر للمغادرة.
- هل أزعجك حديثي؟
- لا، أبدًا.
- أعتذر.. لكن ثق أن لنا حديثًا آخر.
- ربما.

لا أعلم لِمَ أخذني الهروب من حديثه، رغم أنه وضعني أمام نفسي لأراها من منَظور آخر في غفلة من مرآتي، لكنني شعرت بأن الجرعة قد تزيد، ولست واثقًا من تحملها.

3

الجـرعـة الثـانيـة

بمقبرة "دي نيفو" بأمستردام، وقفتُ أمام قبر أبي بعد الانتهاء من مراسم الدفن، تأملت الروح المتبخرة في السماء، وتمنيت أن تجذبني معها لأبتعد عن واقعي المنتظر، لكن كيف لي أن أهـرب من صكوك الدنيا المتجبرة؟ فلا بد وأن أخضع لعنفوانها، وأنساب معها كي لا أنكسر، فلم يعد هناك مَن يقف بظهري، ليتلقى عني الضربات المباغتة، فكان عليّ أن أفكر في إعداد العدة لمواجهة المجهول، بمزيد من دُعامات الصبر والإصرار، نظرت إلى القبر الراقد أمامي، وابتسمت لقسوة الأقدار التي لم ترحم حتى قبورنا، فبالأمس ودعت قبر أمي في "موسكو"، واليوم أقف هنا أمام قبر أبي، ولا أعلم أين سيكون قبري!

امتدت يد تربت على كتفي، فالتفتُّ إلى الخلف من بين دموعي المشرعة، كان "رافائيل روبين" مساعد أبي، ورفيقه في رحلة كفاحه العلمي، قدم لي

كلمات التعازي، ثم ضغط على راحة يدي وهو يصافحني قائلا بلهجة مُبَشِّرة:

- لا تحزني!.. فمثله لا يموت.

تطلَّعتُ في وجهه، استدعى داخلي ما غمرني بالحنين لأبي، فسالت دموعي بلا نحيب، اقترب مني وهمس قائلا:

- انتظريني بالسابعة مساءً بمنزلك.

نظرت إليه مستغربة:

- لِمَ!

- لَدي أمانة لا بد وأن أُسَلِّمها لك.

انصرف عني وهو يتلفَّت يمينًا ويسارًا، ثم غاب وسط المُشَيِّعين، لم أهتم بما قاله كثيرًا، ولا بتلك الأمانة التي أخبرني عنها، رغم غرابة أسلوبه في الحديث، فكان قبر أبي أقوى من أي مثير آخر يمكن أن يخضعني إليه.

بالمنزل كنت أتهيَّب الشبح الساكن بين الجدران، فصوت السكون يكاد ينحرني على لوح الذكريات، فأضأت جميع الأنوار، وأشعلت التلفاز والراديو، وأخذت أتجوَّل في كل أركان المنزل، دلفت إلى مكتب أبي لأشم رائحته العالقة بأنفاس كتبه، أمسكت كتابًا قرَّبته من أنفي فشعرت بانتشاء، تفحَّصت الغلاف وأخذت أقرأ العنوان بصوت مسموع "التغريبة الهلالية"، ابتسمت في نفسي وأنا أردد كلمته: "يا غريب كن أديبًا"، ثم أخذت في ترتيب المكتبة، ألقاني الوقت عند السادسة والنصف مساءً، فانتبهت لدقات الساعة حينما برق برأسي موعد "رافائيل روبين"، عن أية

أمانة كان يتحدث يا ترى؟ – سألت نفسي– لكني لن أتمادى في الحيرة، فصندوق المفاجآت اعتدت عليه مفتوحًا دائمًا بحياتي.

السابعة مساءً.

العاشرة مساءً.

مللت الانتظار، فبدلت ملابسي، وأغلقت هاتفي النقّال، استعدادًا للنوم. استيقظت على عالمي الجديد، عالم يعج بالصمت فلم أعد أسمع إلا دبيب روحي، ولا أشم غير أنفاسي الباردة، التبعثر ينحاز لكياني ويجمعني على حافة مُهشَّمة، فتنهّدت لأوجاعي ثم دفنت رأسي داخل الجريدة لتجرفني الأخبار نحو الخارج، توقفت عند الصفحة الرابعة؛ حوت خبر وفاة أبي، قرأت الخبر فشعرت أنني أتلقّاه لأول مرة، لكنها هي الحقيقة الوحيدة التي لا مفر منها، ويجب عليّ تقبلها، شئت أم أبيْت. بالصفحة المقابلة كان الذهول في انتظاري، عندما وقعت عيني على خبر مقتل "رافائيل روبين" بشارعِ "دامراك" في ظروف غامضة، صرخت مُنتفضة من مكاني، وأخذت أهرْوِل بأرجاء المنزل، كي أُحكِم إغلاق النوافذ والأبواب، فجسدي يمتلئ رعبًا، كلما داهمتني التخمينات بأن مقتل "رافائيل" له علاقة بتلك الأمانة التي حدثني عنها، فمن المؤكد أنها شيء يتعلق بعمل أبي وتجاربه العلمية، وفجأة.. سمعت وقْع أقدام يقترب مني، ركضت بأقصى سرعة إلى غرفة النوم، أغلقت الباب ووضعت خلفه مقعدًا كبيرًا، ثم كوَّرت جسدي المرتعش على السرير، بعد لحظات

لم تطل وقعت عيني على خيال آدمي خلف زجاج النافذة، قفزت من السرير، أزحت المقعد من مكانه، واندفعت ناحية الصالة، اقتلعت سماعة الهاتف من مكانها، فقد حان الوقت لأستغيث بملاذي الأخير، وبعد عدة محاولات للاتصال ببغداد أتاني صوتها، كان قلبي قد ذاب بين ضلوعي، فانطلقت أتشبَّث بنبراتها:

- سلا ااام ؟
- من معي؟!
- أنا "نداء".
- "نداء" ! كيف حالك أختي؟
- لست بخير.
- ماذا حدث؟
- بابا يا "سلام".
- ماذا به؟
- بابا مات.
- بابا!

أتاني صوتها مختلطًا بالنحيب:

- متى حدث ذلك؟
- منذ يومين.
- وماذا ستفعلين الآن؟
- لم يعد لي في الدنيا سواكم.
- لا بد وأن تأتي للعيش معنا.

- أحتاج إليكم.
- ونحن أيضًا نحتاج إليك يا "نداء".

بدأت أُجهِّز نفسي للعودة، أو الرحيل – لا أعلم– فتضاربت المسميات وامتزجت جميعها بمشاعري الغريبة التي قفزت داخلي فجأة، فعرضت المنزل والأثاث للبيع، لكن ظلت مكتبة أبي تُسكِرُني برائحته، وددت أن أحملها معي بحقيبتي، لكن أي حقيبة تلك يمكنها أن تستوعب كل هذا الكم من العقول، فلم يكن أمامي إلا أن أتركها للمالك الجديد على سبيل الوديعة، بعد أن اقترح عليّ ذلك. أضفت مبلغ البيع لرصيدي المتواضع ببنك "بن أمرو"، علَّه يكون سندًا لي في أيام مقبلة لم تتضح معالمها، تمنيت أن أمتلك أعين "زرقاء اليمامة" لأرى المستقبل من هنا، لكن الزمن وحده أقوى من كل الأبصار.

4

تشابكت خلايانا حتى توحّد بيننا الألم فبِتُّ أرى في وجهي ملامحها، أتأوَّه لأوجاعها، وأعيش داخلها، أتجوّل بين عروقها، وأستلذ بسماع دقات قلبها النابض بطموحي، أخيرًا.. فعل الحظ فعلته، فوضع في طريقي مَن يكتبني ولا أكتبه، وأعيش معه بكياني كله ولا يجبرني هو على العيش معه، فكنت سعيدًا بألم، وحالمًا بشجن، لكن ما أرسمه الآن على جدران أحلامي يرضيني رغم هطول السواد.

بدا المستشفى ككتلة حجرية فخمة تتقرفص خلفنا، نظرت للجهة المقابلة من الشارع بحثًا عن تاكسي يُقِلُّنا إلى منزلها، فقالت وهي تملأ صدرها من السماء:

- اليوم أنا أفضل بكثير.
- نظرت إليها مبتسمًا، ثم هتفت هامسًا:

- ألم أقل لك إن أبطال رواياتي أقوياء؟

أوْمأت برأسها، ثم أردفت مُداعبة:

- لكنهم حتمًا يموتون في النهاية.

كنت قد نجحت في إيقاف تاكسي، لكن قبل أن أُخْبِر السائق عن وجهتنا، قاطعتني قائلة:

- ليست عندي رغبة في العودة للمنزل الآن.
- أين سنذهب إذًا؟

أطرقتْ قليلا ثم أغمضت عينيها، وتحدثت كأنما تقرأ عليّ أمانيها:

- أريد أن أذهب للسينما.
- سينما، والآن!
- نعم.
- لكن ..
- لا تقلق.. أنا بخير.

أمام فيلم "حب البنات" بسينما "راديو" جلسنا بالصفوف الأمامية، جذبتني الأجواء الرومانسية، فشعرت بامتلاء، رغم أنني لست من المهتمين بعالم السينما، فدائمًا أصنع أفلامي بنفسي من خلال ما أقرأ أو أكتب من روايات، فالسينما بالنسبة لي عالم مغلق يفرض عليّ خيال غيري، لذلك كنت أتابع دون أن أتلاحم مع الأحداث، لكنني فوجئت بـ"نداء" تعيش بين شخصيات الفيلم كما لو كانت بالداخل، تلتهم وجوههم، وترسم خطواتهم بعينيها ذهابًا وإيابًا، فظلت معلقة بالشاشة

حتى بعد نزول "التتر"، فقصة الفيلم من النوع المبهج الذي يأخذك إلى عوالم الراحة والمصالحة مع النفس، ثلاث شقيقات كل منهن من أمٍّ مختلفة، لكن لأب واحد؛ توفى وترك لهن ثروة ضخمة ولا يجوز التصرف فيها إلا إذا اجتمعن الثلاث فتيات في بيت واحد، لكن خابت آمال المادة المتعجرفة، بعد انفراج العقد بالحب الذي لملمهن من بين طيات الوحدة والتبعثر، فكان علاجًا لأمراضهن النفسية والحياتية التي خلَّفتها أوبئة الغربة بأرض الشتات.

بدأ المشاهدون في الانسحاب من الصالة بعد انتهاء العرض، لكننا فضَّلنا المكوث حتى ينفض الزحام، شردت قليلا ثم باغتتني بالسؤال:

– هل أحببت من قبل؟

حاولت انتشال لساني للكلام، لكني توقفت تمامًا حتى عن مجرد التنفس، ترددت نظراتي على وجهها، ثم انطوى رأسي لأسفل، فقالت بخجل:

– أعتذر جدًا.

التفتُّ إليها مبتسمًا، وربتُّ على راحة يدها المسندة على المقعد، دون أن أنطق بكلمة واحدة.

بالخارج كان الشارع يتلألأ بالأضواء بعد عموم الليل، امتشقتُ "نداء" من بين الزحام في اتجاه الميدان، هناك جلسنا على المقاعد الخشبية لالتقاط الأنفاس، شعرت بأنها تتحامل على نفسها من وقْع الإرهاق، لكنها لم تبدِ أي انطباع بشكوى آلمة، أظهرت تماسكًا غريبًا وهي تطالع العمارات من حولنا، ثم زفرت زفرة عميقة وهي تتوجه إليّ بالسؤال:

- هل أشبه "رقية"؟

نظرت إليها مندهشًا لسؤال لم أستوعبه:

- مَن "رقية" ؟!
- الشقيقة العائدة من لندن.
- أتقصدين الفيلم؟!
- نعم!

هي لا تشبهك من حيث الشكل.

- لم أقصد الشكل.

سرحت قليلا في محاولة لاستعادة الأحداث، ثم انطلقت مجيبًا:

- ربما هي التي تشبهك.

لمحت انتشاءً في عينيها لم أعهده من قبل، ربما هي تحتاج إلى مَن يمنحها الثقة، كي تحظى ببطاقة المرور إلى الوجود، فتعلن للعالم أنها ليست مجرد أنثى، بل هي إنسانة رغم ما تعيشه بين اللا حياة واللا موت.

توقفت أمامنا سيارة بيضاء اللون، لم يكن وجه سائقها الذي أخذ يلوِّح لي بالركوب غريبًا عليّ، تقدمت نحوه وأنا أُلملم خلفي أطياف الاندهاش، عندما اقتربت منه كانت تقاسيمه أخذت في النضوج حتى اكتملت ملامحه أمامي، فرددت مستغربًا:

- "فريد زيدان"!
- نعم "فريد زيدان" الذي نسيته.
- وهل يعقل أن أنساك يا صديقي؟
- تفضل.. اركب.

التفتُّ لـ"نداء" في الخلف، ثم قلت له بارتباك:

– أشكرك. تفضل أنت.

– الآنسة معك؟

– نعم.

– إذن تفضلا أُوَصِّلُكما.

– لكن هي تسكن بمدينة 6 أكتوبر وأنا ...

– سأوصلكما يا "ضياء".

زاد ارتباكي لتلك الورطة التي أوقعتني فيها الصدفة:

– أمْهِلْني لحظة.

اتجهت نحوها بتثاقل، فتساءلتْ عندما اقتربت منها:

– مَن هذا الرجل؟

– "فريد زيدان" زميلي بالجورنال.

– صدفة غريبة.

– اقترح أن يوصلنا.. فما رأيك؟

– ليس عندي ما يمنع.

جلستُ بالمقعد الأمامي جواره، وجلست "نداء" بالخلف، أشرت إليها قائلا:

– "نداء قاسم".

– أهلا وسهلا بك.

– "فريد زيدان" زميلي وصديقي.

ردت "نداء" مُرَحِّبة:

- سعيدة بالتعرف إليك أستاذ "فريد".
- وأنا أكثر. لهجتك ليست مصرية.

قاطعتُ حديثهما قائلا:

- "نداء" عراقية.
- عراقية!

فأجابت بهمس:

- نعم.

قبض على المِقْوَد وظل صامتًا، شعرت أن برأسه تدور الدوائر، فقطعت الصمت متسائلا:

- هل من جديد بالعملْ؟
- لا جديد إلا الأخبار التي تنهال علينا بعد اعتقال "صدام حسين".

غيّر مسار الحديث، موجهًا سؤاله إلى "نداء":

- ما رأيك في "صدام حسين" يا آنسة "نداء"؟
- رأيي لا يزيد على رأيك.
- وهل تعرفين رأيي؟
- كلنا نجمع أنه طاغية.
- لكنك عراقية، ومؤكد أنك عشت التجربة عن قرب.
- "صدام حسين" همٌّ وانقضى، ما يهمني هو القادم.
- وماذا عن توقعك للقادم؟
- لا شيء.
- كيف ذلك؟

- هل تستطيع التنبؤ بأنني سأعيش بعد لحظات قادمة؟
- لا.
- إذًا اترك القادم حتى يصبح ماضيًا.
- لكن عملي يحتم عليّ مطاردة الحدث قبل وقوعه.
- وبعد أن تحصل عليه ماذا تفعل؟
- أبحث عن حدث آخر.

ضحكنا لتلقائية الإجابة التي نطقها بإصرار غريب، كنا قد اقتربنا من مدينة 6 أكتوبر، فأخذت "نداء" تصف الطريق إلى منزلها، حتى توقفنا أمامه، فقالت وهي تستعد لمغادرة السيارة:

- أشكركما.
- لا شكر على واجب.
- سعدتُ بالتعرف إليك أستاذ "فريد".
- بل أنا الأسعد.

لوَّحت لنا بيدها ثم غابت عنا بعد ما انطلقت السيارة.

نظر إليّ طارحًا أسئلة كثيرة لم ينطق بها بعد، فابتسمت له مبادرًا بالسؤال:

- ماذا تريد أن تقول؟
- لا شيء.
- لكنى أرى أشياء تريد أن تقفز من عينيك.
- لن أسألك مَن تكون تلك الفتاة.
- لكنك سألتني بالفعل.

- لك حياتك الخاصة.
- علاقتي بـ"نداء" ليست علاقة خاصة.
- إن لم تكن كذلك، فماذا إذن؟
- يومًا ما ستعرف.

هز رأسه مبتلعًا كل ما أراد أن يطرحه من أسئلة، فهو يعرف طباعي جيدًا، أكثر من معرفته بطباع "أبي الهول" ذاته، أدار وجهه للطريق أمامه، ثم أردف قائلا:

- تخيَّل أنني لا أعرف أين تسكن؟

خرجت ضحكة خفيفة من فمي مع دفعة هواء:

- فإلى أين تتجه إذًا؟
- صدقني لا أعرف.

ابتسمت له قائلا:

- أسكن بالمنيل.

وجَمَ وجهه، وعاد ليعلق نظره بالطريق الممتدة.

5

هل أحببت من قبل؟

إلى أين سأهرب من صوتها هذا؟ إلى أين؟ وكل الأشياء من حولي تسألني السؤال ذاته. وقفت أمام صورة أبي، وأعدت البحث عن صورة أمي، لكن لا شيء يرحمني، أردت أن أنفلت من الأنا، لكنها تلتصق بي بأقصى قوة، لن تخرج من جرحي، من خبزي، من ملحي، ستظل كما هي، وسأظل لها كما أنا.

عشت حياتي كلها أجمع في الحب، وأحشو به قلبي، لم أتخيل إنسانًا على وجه الأرض رأى في الحب ما رأيت، وشعر به كما شعرت، وعاش معه كما عشت، لكني اليوم لا أستطيع الإجابة عن سؤال كهذا. اكتشفت أنني لم أجن شيئًا من حب منحته حياتي، و لم يمنحني هو إلا الفراغ، حتى إنني يئست من البحث عن حب آخر، فآثرت العيش على تلال حبي القديم ولا أعرف إلى الآن لمن كان هو؟ تعوَّدت أن أبني بيوتًا وأعيش فيها،

لكن مع غروب الشمس كنت أهدمها، لأبني غيرها في يوم آخر، فما أجمل الحب حينما يكون طفلا صغيرًا يحتويك، لكن عند ما يكبر الطفل داخلك تفقد معه شبابك، وهذا ما كنت أخافه، أن أفقد قوتي، وأفني عمري في حب واحد فقط، لكن العمر لم ينتظرني كي ألملم الكثير والكثير من لآلئ القاع، بل تركني ورحل بلا عودة، أقف على ذكرياتي وأحمل نفسي على البكاء، لكني لم أجربه أبدًا أمام الآخرين. حدثتني أمي كثيرًا عن ابنة جارتنا حتى تزوجت، ثم عادت تحدثني عن ابنة صديقتها حتى تزوجت، وفي النهاية طلبتْ مني أن أختار، وأحمد الله أنها ماتت قبل أن تضع يدها على واقعي، كنت أتمنى أن أُلَبِّي رغبتها، خصوصًا بأيامها الأخيرة، لكن بحثي الدائم عن الحب، أفقدني القدرة عن مجرد الاختيار، فانجرفت خلفه ونسيت نفسي، فعشت ألف قصة حب مع ألف فتاة، بل مليون، لكني لا أذكر أنني قلت لفتاة منهن كلمة "أحبك"، ورغم ذلك كنت أحب بشراهة، وبلا شروط، أحببت زميلاتي بالدراسة، أحببت مُدرساتي، أحببت صديقات أمي الكبار، وبنات عمي وخالي حتى المتزوجات منهن، أحببت الكثيرات ممن جلسن جواري بالمواصلات العامة، حتى ممثلات السينما لم يسلمن من حبي، لم أذهب إلى أي مكان وخرجت منه دون قصة حب، طالت مدتها أم قصرت، المهم أنها منحتني تلك القشعريرة اللذيذة التي تملؤنا بالنشوة.

لم ينفصل حبي أبدًا عن ذكرياتي، فتعدى الأنثى ليترسب على أوراقي وصوري، وقصاصات التاريخ التي تحفظني، فلم أتخيّل لحظة واحدة أن رجلا كـ"جمال عبد الناصر" يومًا ما سيموت، لكن يوم مات وحملني

خالي على كتفه، وسار بي في جنازته، علمت أن أبي قد مات هو الآخر، ورغم ذلك ما زلت أعيش على أمل عودته، ولن أسمح أبدًا أن يغيِّر القارب مساره نحو اليمين، بل سأجبره أن يواصل البحث عن أبي ناحية اليسار، مهما كلفني ذلك من آلام الجسد، مسكين هذا الجسد الذي دائما ما ندفع به لمواجهة النار،هدم السادات "اللومان" ثم خدعنا وبناه بالمقلوب.

جلست في سريري وذهبت إلى هناك [1]، خلف القضبان التي لاكتها أصابعي بمعتقل "وادي النطرون"، وحضرتني تلك اللحظة التي لم يسمح لنا فيها إلا أن نكون حيوانات، حُرِمت حتى من مجرد التفكير في الهروب، لكن يومًا ما فقدت صوابي وحاولت أن أفكر، فقفز أحدهم يتفحصنا، أمسك برأسي، عصرها بإصبعيه، ثم قذف بها لتضغط على عنقي، وترتد في مكانها، تركني، ثم اقترب من زميلي، تشمَّم رائحته، أمسك برأسه هو الآخر، أحكم إلصاق كفه بجبهته، احمرَّت عيناه، وصرخ في وجهه - فيمَ كنت تفكر يا ابن الكلب - دفعه بقوة، ألقاه على الأرض، داس عنقه بحذائه، ضربه بهراوته على ظهره، لم يصرخ، لم يتأوَّه، لم... لكن دموعه كانت تتبخر على الأرض الإسفلتية عندما انتشرت بقع صفراء على سرواله الأبيض.

وحينما عدت إلى هنا، كان يجب أن أتوقف عن التفكير، كي لا أعود إلى هناك، لكني مللت الفراغ، وآن لي أن أتوقف عن بلاهتي.

---

(1) فقرة من مجموعة "رائحة الخشب".

قاطعني جرس الهاتف عند كلمة "بلاهتي"، فرفعت السماعة:

- آلو.

أجاب بلهفة:

- مساء الخير أستاذ "ضياء".
- مساء النور.
- معك "إبراهيم".
- "إبراهيم" مَن؟
- "إبراهيم عبد الفتاح".
- آه تذكرتك. أهلا بك أستاذ "إبراهيم".
- "نداء" أصيبت بنزيف حاد، ونقلتها إلى المستشفى.
- ماذا؟ كيف حدث ذلك؟
- أرجو أن تأتي بسرعة، فبنك الدم لا يحوي فصيلتها.
- سأكون عندك حالا.

تهلل وجه الطبيب عندما اكتشف أن دمائي تتطابق مع دمائها.

6

جرعة دماء

سنرجع خبرني العندليب، غداة التقينا على منحنى.

بأن البلابل لمّا تزل،هناك تعيش بأشعارنا.

وما زال بين تلال الحنين وناس الحنين مكان لنا.

سنرجع يوما إلى حيّنا.

بمطار دمشق الدولي كانت تنبض تلك الروح بأذني.

لأول مرة منذ خلقني الله تحملني أرض عربية، بل تحتويني، تبعثرني عليها، وتشد جذوري في باطنها، فعجزت عن وضع يدي على مواضع الرهبة التي سقطت داخلي، وأنا أتفحص وجوه الناس. وجوه أعشقها وأحن إليها كحنيني لأبي وأمي، ووطني الغائب، استنشقت منها أنفاسًا أخرى، ورأيت بين قسماتها لوني، فألقيت روحي بينهم، لأطهر جسدي من رضاب المسخ الذي التصق بي أيامًا وأيامًا، فشعرت أن أجزائي الضائعة ترتد إليّ، وتنجذب نحوي بأقصى سرعة، فحلقت بأجنحتي

الجديدة، وعدت لأنعجن بأرضي العربية، لململتُ حقائبي وخرجت إلى النور، نظرت للسماء، وجذبت نفسًا عميقًا، وأطبقتُ عليه بكياني ورحت أستلذ بساعة ميلادي، ثم هتفت بتنهد– الله عليك يا دمشق–كم هي رائعة أسماء عواصمنا ومدننا وشوارعنا وطرقاتنا الدافئة.

لوَّحت لتاكسي، ثم طلبت من السائق أن يوصلني إلى أحد الفنادق للإقامة، إلى أن يحين وقت العبور إلى العراق، شعرت أنني أسعد إنسانة على وجه الأرض، لأنه يفهم لهجتي العربية ويستجيب لها دون عناء، فتذكرت أبي الذي علمني كل شيء، وحرمته الأقدار من أشياء كثيرة، فمات معلقًا بين أمل الحرية وأبواب بغداد، تخيلته جواري يشير لي من النافذة إلى هذا وذاك، ويحدثني عن تلك الشوارع العامرة، فيكون هو أول من يكشف لي الغطاء عن وجه الوطن، لألمح بسمته المفعمة بغناء الفيروز ورائحة الليمون وطعم البرتقال، لكن السائق جذبني من بين يديه ناظرًا نحوي من المرآة الداخلية، وهو يشير بيده للخارج قائلا:

– "فندق الشام" يا آنسة.

طالعتُ واجهة الفندق من خلف النافذة، فسحرتني أجواء الأصالة المنتشرة بالمكان:

– شكرًا لك.

ناولته الحساب بعد ما حمل حقائبي نحو الداخل.

بالغرفة "288"، وقفتُ بالشرفة المطلة على الشارع المزدحم بالسيارات، ورحت أقرأ اللافتات المعلقة على المحلات المقابلة، لم أصدق بعدُ أنني نجوت ببدني وروحي وكياني، من أرض الهروب، لذلك كنت ألتهم كل

ما يحيط بي بشراهة، حدقت في الشمس المنزلقة عن رأس العالم، فرأيت من خلفها حياتي الماضية تفتح لي ذراعيها لأبيت في حضنها، فركضت إلى داخل الغرفة وأنا أرتعد من شبح عاد يطاردني، فأحكمت إغلاق الباب، وأشعلت التلفاز، أخذت أقلب القنوات العربية القناة تلو القناة، حتى توقفت عند فيلم كرتون للأمريكيين (Tom and Jerry) ضحكت كثيرًا، حتى استوى بي التعب على السرير بعد رحلة سفر مرهقة.

لم أر في حياتي صباحًا كهذا، وها هي الشمس قد عادت لتطرد الأشباح الساكنة خلفها، وتنثر الطيب في أرجائي، لأجدد ميلادي معها، وأحتفي بيوم عربي جديد يضيف إلى عمري ولا ينقص منه شيئًا، نزلت إلى الشارع لأقترب من الناس أكثر وأكثر، وأمزج نفسي بأصبوحاتهم، فرأيت بينهم ذكرياتي التي لم أعشها، ووسائد حلمي المرصعة بتفاصيل الأماكن، فبالماضي كنت أرسم على أوراقي وطنًا، وألصقه على جدار غرفتي، أعيش فيه ساعة، ثم أعيد رسمه من جديد، لأعيش فيه ساعة أخرى، لكني لم أقتنع أبدًا بأن يكون وطني هو مجرد ورقة نعلقها على جدار، وها أنا الآن أعيش الحلم حلمًا رغم حقيقته الماثلة أمامي، لكن آن لي أن أتوقف عن صنع أطواق الوهْم التي تحاصر تكويني، فيجب أن أعيش القادم مجردًا من كل ماض يمكن أن ينغص أيامي المقبلة، ولا أفكر في شيء آخر انقطع عني وطويته خلفي.

في نهاية الشارع، توقفت أمام محل "أبو شاكر" للفطائر والمعجنات، فجرى ريقي عندما امتلكتني الرائحة المنتشرة بالمكان، جلست على إحدى الطاولات المصطفة بساحة صغيرة أمام المحل، كواحدة من الناس الذين

أتيت لأذوب بينهم، فقدِم النادل نحوى مرحبًا، ثم ناولني قائمة الطعام، فأخذت أسأله عن أنواع الأطعمة المكتوبة، ثم رفعت رأسي "أمممم".

- "فطيرة السبانخ"
- شيء آخر؟
- أشكرك.

غاب عني ليحضر ما طلبته، فجلست أنظر للناس بالطاولات المحيطة، وأستمد من أعينهم الأمان، فكرت أن أجلس معهم جميعًا، وأعرفهم نفسي، لكنني سرعان ما أعرضت عن تلك الفكرة المجنونة، واكتفيت بتقبلهم لي كإنسانة منهم، لا تشذ عنهم كبطة سوداء سقطت فجأة وسط قطيع من البط الأبيض، فحضرتني شوارع بغداد، وسألت نفسي: هل سأعيش فيها منفصلة عن تلك الشوارع التي رسمتها في خيالي؟ انتبهت للنادل وهو يضع على الطاولة "فطيرة السبانخ"، التي كنت قد طلبتها، فجذبت منها نفسًا عميقًا، ومسحت بأنفي الهواء كله-الله- فابتسم قائلا:

- صحة وعافية.
- أشكرك.
- تأمرين بشيء آخر يا "خانم"؟

نظرت إليه، وشردت قليلا، ثم بادرته بالسؤال:

- كيف أسافر إلى العراق؟
- العراق!
- نعم.

حدّق في وجهي ثم أجاب مندهشًا":

- تركبين سيارة أجرة من "السيدة زينب".
- هل تبعد كثيرًا عن هنا؟
- ليس كثيرًا.
- شكرًا لك مرة أخرى.

عدت إلي الفندق وأنا أفكر في رحلتي القادمة، فجلست في الشرفة أرقب السيارات والناس، وقرص الشمس الذي سقط في الجهة المقابلة لهذا العالم.

امتلأت السيارة عن آخرها، وبدأ التحرك صوب منفذ "الوليد" للعبور إلى العراق. أخبرني السائق بأنه عراقي، فكنت أصطنع الكلام معه لأستمتع بسماع لهجته، فسألته عن بغداد وأهلها، وشكل شوارعها، فأخذ يتحدث ويتحدث، ويصف لي بدقة متناهية وكأنه أراد أن يحملها حملا ويضعها بين يدي. توقف للحظات ثم هز رأسه بأسى، وهو يحدثني عن حال أهلها الآن تحت وطأة الحصار الأمريكي الذي لا يرحم حجرًا أو بشرًا، كان صوت المذياع يتداخل مع حديثنا، فأحيانًا تصلني بعض كلمات عن فلسطين، وأحيانًا عن العراق وأمريكا، وأحيانًا أخرى تتقاطع المحطات، فأسمع صوت "فيروز" من بعيد، وفي ذات الوقت أسمع مذيعًا ينقل أخبارًا عن القيادة السورية، وحالة الطقس، حتى دخل علينا الظلام، فلم أعد أرى من الطريق الممتدة إلا آخر حدود الضوء المنبعث من السيارة، سرحت وسط لغط الركاب، ثم استيقظت من غفوتي على صوت السائق:

- نقطة تفتيش. أبرزوا جوازات السفر.

نفث السكون رائحته بيننا فما عدت أسمع إلا دبيب قلوبهم، حينما اقترب أحد الضباط السوريين من نافذة السائق، مصوِّبًا "كشاف" النور في وجهه قائلا بحزم:

- أين جوازك؟
- تفضل سيدي.

أخذ يقلب أوراق الجواز، ثم ألقاه في وجهه، وهو يشير نحوي:

- أنتِ. أعطني جوازك.
- تفضل.

أخذ يقلب أوراق الجواز، يمينًا فيسارًا، ثم سلط ضوء "الكشاف" في وجهي قائلا في خشونة:

- هولندية؟
- بل عراقية أحمل جواز سفر هولندي.

أومأ برأسه الضخم،ثم ردد بتهكم:

- آآآه . عراقية تحمل جواز سفر هولندي.
- نعم أنا كذلك.
- ترجَّلي من السيارة.

حدَّقت في وجه السائق مستنجدة، فحاول التفاهم معه ليتركني وشأني، لكنه نهره بشدة، حتى كاد يصفعه على رأسه، فنهض من مكانه، مخرجًا حقائبي من الصندوق، كان الضابط قد انتهى من فحص أوراق باقي الركاب، فنظر إليّ السائق نظرة طويلة لم أفهمها، ثم انطلق في طريقه.

جذبني أحد الحراس من ذراعي وأدخلني سيارة "جيب" كانت تقف على جانب الطريق، وجلس جواري من ناحية اليسار وحاصرني آخر من ناحية اليمين، وأخرج من سترته العسكرية عصابة سوداء لف بها وجهي بعد ما وضع في يدي قيدًا حديديًا، ثم انطلقت السيارة وأنا أصرخ بكل قوة:

- ماذا فعلت؟

لكن يبدو أن الظلام والقيد هما الإجابة الأبدية لكل أفعالنا، كنت أشعر باختناق كاد يُزهِق روحي، فحاولت أن ألملم من بين أنفاسهم ما يعينني على الحياة، كان صوتي قد انتهى، ومهما صرخت في وجوههم التي لا أراها فصوتي قد انتهى، أخذت السيارة ترتفع وتنخفض، تسير وتتوقف، تنحدر، وتستوي، تتخلخل، وتتوازن، حتى سكنت. توقفت تمامًا وهدأ محركها عن الدوران في رأسي، وساد الصمت، الصمت، الصمت، حتى انفجر أحدهم يجرُّني من قيدي، وهو يصرخ جوار أذني:

- ادخلي يا بنت الـ......؟

سمعت بابًا حديديًا ينفتح وينغلق، عزلني عن صوت الرياح بالخارج، فكانت رائحة غريبة في استقبالي- رطوبة، عفونة، عرق، بول، وبراز-، فصرخت بكل قوة وأنا أتقيَّأ أحشائي، ففوجئت بصوتي قد عاد، ربما هم مَن ردوه عليّ ليستمتعوا بصراخي، لكني عدت لأصرخ وأصرخ وأصرخ:

- أخرجوني من هنا، ماذا فعلت؟

فلم أسمع إلا قهقهات لزجة، وتعليقات ساخرة لم أفهمها، ثم نزع أحدهم العصابة من على وجهي، ودفعني بقوة في نصف قبر لا يسعني إلا إذا جلست القرفصاء، علمت بعد ذلك أنها الزنزانة رقم (2).بمعتقل "فرع فلسطين" السوري، ومن تلك الزنزانة بدأت رحلتي مع – مع ماذا؟– لا أجد وصفًا يليق بتلك الأيام السوداء، أنام كما تنام البهائم، لكن البهائم لا تنام على صوت العذاب، ولا تصحو على صوت العذاب، وأراهن العذاب ذاته إن استطاع تحمل هذا الغباء.

بالصباح، أو المساء–لا أعلم– فتح أحدهم باب الزنزانة، وألقى أمامي بطبق من الشوربة المُرَّة، والخبز المعجون بالتراب، والحصى، صاح في وجهي:

– الطعام.

– لا أريد طعامًا ولا شرابًا.

فصفعني بعصاه المطاطية على كامل جسدي، ثم كرر الكلمة لاهثًا:

– قلت لك الطعام.

فوجدت نفسي أكتم تأوهاتي، وأنساق للأكل دون وعي. أنهى المحقق أسئلته التافهة، والتي كنت أجيب عنها بلا مبالاة واستهتار مستفز، ويالضخامة الاتهامات الموجهة إليّ!! "جاسوسية وانتماء إلى منظمات إرهابية، والتخابر لصالح (السي آي إيه) وإسرائيل، والأضحوكة الكبرى كانت لصالح النظام العراقي، فكل يوم أصحو على تهمة جديدة وتحقيق جديد، وذنبي الوحيد أنني أحمل جواز سفر أجنبي، فما كان مني إلا أن أضحك، أرفع رأسي للسقف الممتلئ بفضلات الذباب وأضحك، لكن

يبدو أن ضحكاتي هذه أثارت غضب مَن كان يجلس في الظلام، لم أر وجهه أبدًا، لكني كنت أشعر به جيدًا، فلما ضاق الخناق واستحكمت حلقاته، بصقت في وجه المحقق الذي سبَّني بأمي وأبي وإخوتي، ثم لعن نفسه وهو يمسح بصاقي من على وجهه، فأمر بإخراجي من الغرفة، بعد أن أومأ برأسه للحارس الذي كان يقف في انتظاري بالخارج، جذبني من شعري وألقاني على وجهي، قيّد يدي خلف ظهري، ثم مزَّق ملابسي، تعرَّيت تمامًا، لم يرحم صراخي، استغاثتي، نحيبي، أنيني، صمتي، مزق داخلي كل شيء، فاعتدتُ التمزُّق من كل الأجساد التي تهافتت على لحمي بعد ذلك. مرت الساعة، اليوم، الأيام، لا أعلم كم لبثت حتى انتفخت بطني بذنوبهم.

ألقوني من السيارة بعد أن غرس أحدهم سلاحه في رأسي قائلا:

- لو تفوَّهت بكلمة واحدة سنقتلك.

لم أشعر بأي شيء بعدها، حتى سقطت شمس فوق جفوني، فرفعت يدي لأحاول الإمساك بها، لكنها سخرت من ضعفي المتكوِّم على الرمال، أقمت جسدي، تعثرت، سقطت على وجهي، حاولت النهوض مرة أخرى، قاومت السقوط وأنا أجر قدمي وحقيبتي خلفي، حتى وصلت للطريق الإسفلتية، أشرت لسيارة قادمة من بعيد، فحملتني وسط تساؤلات السائق إلى الفندق، شكرته بهدوء، ثم تركته لذهوله، نظرت للناس من حولي، وأعدت التحديق في وجوههم، فهي كما هي، تلك الوجوه التي عشقتها قبل السقوط في الكابوس.

تحت مرَشِّ الاستحمام، حاولت أن أزيح قرفهم عن جسدي،تمنيت لو أنزع جلدي، وأغيِّر كل أنفاسي، ورائحتي، تحسست بطني المنتفخة بالذل، بالقهر، بظلم الإنسان للإنسان، وتذكرتُ كلام أبي عندما رآني أهبط من سيارة زميلي "بيتر" في وقت متأخر من الليل– أنت عربية، وبكارتك هي حياتك– أحنيْت رأسي على صدري، ودفنت دموعي في المياه، وطردت أفكار الموت عن رأسي، فما زلت أعيش على أمل لقاء الوطن، والوطن هو كل الحياة، ومن أجل الحياة لا بد وأن أضحِّي وأتشبث بآخر قطعة لحم يمكن أن تجمع تكويني حولها من جديد، لذلك أنا هنا، وسأظل هنا بكل قوة، أصارع هياكلهم الملطخة بدماء الضحايا. وقفت بالشرفة، وتأملت الشارع المزدحم بالسيارات والناس، رفعت رأسي للسماء وأخذت أشكو إلى الله، أشكو بكل أوصالي، وتقاسيمي، ونبضي، فسالت دموعي حتى إنني رأيت الأضواء من خلفها تتحلل. تركتها تسيل، وعدت إلى الداخل، رفعت سماعة الهاتف، وطلبت من "السويتش" مكالمة هاتفية لبغداد، مرت اللحظات كما تعودت أن تمر، ودق جرس الهاتف، فكانت أختي "سلام"، ارتميت بين نبرات صوتها، وزفرت في وجه العا لم، لم أستطع منع نفسي من البكاء، وأنا أحكي لها عن مأساتي، لكن لم يصلني منها سوى ترجرج الأنفاس، انتظرتني حتى أنهيت حديثي وقالت لي ببرود:

– لا تتصلي هنا مرة أخرى، نحن لا نريد مشاكل.

انغلق الخط بيني وبين إخوتي إلى الأبد.

والآن.. إلى أين سأذهب؟ أيعقل أن تضيق بي أوطاني إلى هذا الحد؟ فلا أجد منها قطعة أرض تحملني، أضمها إليّ وأستلقي عليها، وآكل وأشرب

منها، أليس لي الحق في وطن أصنعه، ويصنعني؟ أغرس فيه أحلامي؟ ويمنحني هو الرغبة في الانتماء؟ فالعصفور يبدأ وطنه بقشة يمسك عليها بمنقاره، وأنا ما زلت لا أعلم من أين سأبدأ.

وطني... بحثت في الجوارير، في خزانة الملابس، أسفل السرير، وراء الأبواب، خلف الستائر، لكن لا أعلم عن ماذا أبحث، أمسكت "ريموت" التلفاز، وأخذت أقلِّب القنوات، أقلب وأقلب، انفجارات، طائرات ودبابات، جنائز للشهداء، وعويل نساء، عالم يرقص ويغني، يثرثر، ويصرخ، يحمر وجهه، يقوم ولا يقعد، فابتسمت قليلا ثم واصلت البحث، إعلان يتبختر بالأشكال والألوان، وموسيقى "الراب"، بنات تتمايل تتأرجح، ضحكات وابتسامات، جِمال وخيول ورمال، وأخيرًا تتر يهبط على أعمدة "الكرنك"، فصرخت بقوة، وقفزت لأعلى:

— مصر!

7

ابني العزيز..

إن تلك الأوراق التي بين يديك هي كل ما جنيته من تلك الدنيا، حرصت عليها كحرصي عليك، لتصلك يوما ما تكون فيه بكامل قوتك، فتتحمل حقيقتك كما تحملتها من قبلك وأنا في كامل ضعفي، فكن قويًا دائمًا مهما داهمتك الحقائق.

أمك

كتبت "نداء" تلك الرسالة وطلبت مني وضعها بمقدمة الرواية، فظلت كلماتها تطن في أذني حتى غادرت غرفتها.

بالخارج رأيت "إبراهيم عبد الفتاح" قادمًا من نهاية الممر، وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة وعلامات ودّ، سألني عن حال "نداء"

فأجبته بأن حالتها استقرت، وصدَّق الطبيب على خروجها بعد أربع وعشرين ساعة من الملاحظة الطبية، فصافحني بشدة ثم أمسك على يدي قائلا بخجل:

- اسمح لي أن أقدم لك اعتذاري الشديد.
- تعتذر عن ماذا؟
- عن حديثي غير اللائق معك بمنزلي.
- لا داعي للاعتذار.
- بالأمس قرأت لك مقالا رائعًا، غيَّر وجهة نظري تمامًا.
- أي مقال تقصد؟
- أظن اسمه "أوطان بلون الفراولة".
- ماذا ! أين قرأته؟
- بجريدة اسمها "ابن النيل".
- أظنها جريدة معارضة.
- نعم. هي من جرائد المعارضة الجديدة.
- كيف حدث ذلك؟

رفع كتفيه وأنزلهما مندهشًا، ثم دخل الغرفة وتركني غارقًا في ألف سؤال وسؤال.

وقفت على جانب الطريق المقابل للمبنى الزجاجي الفخم، رأيته كأنما لم أره من قبل، ترددت في عبور الشارع للوصول إليه، لكن إحساسي بأنني قربة دماء فُقئت في فم بعوضة حمقاء، كان يدفعني نحو الداخل، لأكشف تلك الحقيقة الغائبة، وأعود بها من حيث أتيت، أعلم جيدًا أنني

لو وقعت على آلاف الحقائق لن أفعل شيئًا، ربما أتململ، ويتحرك وجهي يمينا ويسارًا، وأتلفظ ببعض الشتائم، وكفى، فماذا يمكن أن أفعل وقد بطلت أسطورة القلم؟ بل بطلت كل أزمان الأساطير، و لم يعد منها سوانا، لكننا أضعف ما بقى، وليتنا ذهبنا مع مَن ذهب، لكنها هي الحياة التي تجعلنا دائما نمسك على أنفسنا، لنتحمل العذاب.

عبرت البوابة الرئيسية نحو الداخل، فاستقبلني مَن رآني بالترحيب، والمصافحة، والعناق، التف حولي الكثيرون، حتى إنني لم أشعر بنفسي إلا أمام باب مكتبي، فوقفت مترددًا، لكن أحدهم لم يتردد لحظة واحدة، ودفع الباب أمامي، أبدًا لم أجلس خلف المكتب رغم إصرارهم الشديد، فوقفت أمامه ملتصقًا بالأرض، ولم أتقدم خطوة واحدة، فترددت كلماتهم المحفزة على العودة، نظرت إليهم مبتسمًا وشكرتهم، فانصرفوا الواحد تلو الآخر، بعد أن عادوا لمصافحتي.

أزحت الستارة عن النافذة ووقفت أتأمل الشارع المكتظ بأفواج البشر، يتزاحمون، يتقابلون، يتداخلون، ينفذون من أجساد بعضهم البعض، كأنهم أشباح تدوس الأرض الجاثية على ركبتيها، وتلطم رأسها بالشمس، فتقرقع أصواتًا، وأجراسًا، وأبواقًا، وصياحًا يتواثب من تحت عجلات السيارات، فرفعت رأسي سريعًا نحو المئذنة لالتقاط أنفاسي الهاربة.

دقات على الباب.

أذنت للطارق بالدخول، فكانت "سهام" بوجهها المُتَورِّد، قالت وهي تندفع نحو الداخل:

- أكاد لا أصدق عيني.
- العين أصدق إنباء من الصحف.
- قلت لك ستعود.

ابتسمت متهكمًا مصافحًا إياها:

- شكرًا على نشر المقال.
- مقال!
- مقالي الأخير نشر بالأمس في جريدة معارضة.
- كيف حدث ذلك؟
- اعتقدت أنه أنت.
- وكيف أنشر مقالا لك دون الرجوع إليك؟
- إن لم يكن أنت فمن إذًا!
- لا يمكن أن يكون رئيس التحرير.
- إذًا مَن تجرّأ وفعل ذلك؟
- أيعقل أن يكون هو!
- مَن؟
- موظف الأرشيف.

صمتُّ قليلا، ثم أعدت النظر للشارع من خلف النافذة، وشعرت بقلبي ينقبض على الدماء المتدفقة داخله، ثم التفتُّ إلى "سهام" شاردًا وغادرت المكتب متوجِّهًا صوب الأرشيف، وأنا أهز رأسي للترحيبات المتناثرة هنا وهناك.

- مساء الخير يا "مختار".

قام من مكانه مُرحِّبًا، بعد أن تغيَّر لون وجهه لوقْع المفاجأة:

- أهلا وسهلا أستاذ "ضياء".

تسمَّرت أمامه وأنا أضغط على يده ضغطة خفيفة، وباغته بالسؤال:

- بكم بعت مقالي؟

سحب يده من يدي، وهو يتخبط بالملفات من حوله، حتى إنه أسقط بعضًا منها، وأجاب بنبرة مرتعشة:

- لا أفهم سؤالك.
- بل تفهم جيدًا.
- ....
- لماذا فعلت ذلك؟
- صدقني لا أفهم.
- لا تراوغ.. أنت تفهم جيدًا ما أقصده.

خفض رأسه لأسفل، تنهَّد ثم أردف قائلا بصوت خفيض:

- نعم أفهم.
- لماذا!
- لدي خمسة أولاد، وغلاء معيشة، وراتب لا..

رفعت يدي، وفردت راحتي أمام وجهه مغلقًا جفوني عنه قائلا:

- كفى كفى!

استدرت بظهري، وتوقفت لحظات متجاهلا وجوده، ثم غادرت المكان.

نخطئ ونبرر، نبرر ونخطئ، نحمل الأخطاء أوزارنا ونتبرَّأ منها، ثم نلقي بها في النار واهمين أنها لن تقفز إلى حياتنا مرة أخرى، وننسى أن الذنوب لا تتوقف عنا إلا بالموت، فإلى متى سنظل نراوغ أنفسنا ونخدعها بحججنا الهزيلة؟ لكنني لن أعيش أبدًا في كوكب آخر، بل سأظل قويا دائمًا مهما داهمتني الحقائق.

8

الجـرعـة الثـالثـة

"ادخلوها آمنين"

جئت أرتمي بأحضانك علّني أجد تحت جناحيك الرحمة، فتقبليني شريكة في ثراك، أشم منه ثرى بغداد، وأتنفس وجودي فأمتلئ بملامحك لأعرف مَن أنا، ومَن أكون، أريدك أن ترسمي عيني، وأنفي، وشفتي، وتغزلي شعري على راحتيك، فيراني الناس كما أراهم، ويشعرون بي كما أشعر بهم، ولا أعيش كشبح هُلامي يظهر في الظلام، ويذوب في وضح النهار دون أن يرى نفسه أو يراه أحد آخر، انتفضت على صفعة الضابط لجواز سفري بختم الدخول، فابتسم مرحبًا وهو يشير من الكشك الزجاجي نحو الداخل، فعقدت العزم على البحث عن وطن حتى لو كان بين ركام من قش، فإلى المزيد من الشوارع والطرقات والناس، أغوص بأقدامي بينهم لأترك ذكرى تعيدني إليها، أضرب فوقها خيمتي، وأقيم

حفلات الرقص الصاخب حول حلقات النار، فيعلم الحاضر الغائب أنني قد عدت إلى هنا لأغرس رايتي برأس مدينتهم، فكل أوطان العرب هي وطني، شاءوا ذلك أم.

كنت أنساب من بين المنتظرين نحو ساحة السيارات بالخارج، وأنا أزيد من إصراري على المواصلة، لأعوِّض نفسي الضائعة بهذا اللقاء الجديد، وقفت حائرة أتأمل المارة، فما زلت لا أعلم إلى أين سأذهب؟ أو ما الذي أتى بي إلى هنا؟ لكنه بأية حال لم يكن هروبًا، فإلى أين سنهرب من أوطاننا إلا بالعودة إليها، اقترب مني شاب في مقتبل العمر:

– تاكسي يا مدام؟

نظرت إليه واجمة، ثم وضعت يدي على بطني البارزة، وشردت بعيدًا، لكنه عاد يلح بالسؤال:

– تاكسي يا مدام.. تاكسي؟

حركت رأسي بالموافقة، فحمل حقيبتي ووضعها في صندوق السيارة.

– إلي أين نتجه؟

– إلى أي فندق مناسب.

– لكن الفنادق هنا أجورها مرتفعة جدًا يا مدام.

– أين سأقيم إذن؟

– هل ستطول مدة إقامتك؟

– حتى الآن لا أعلم.

– ما رأيك في شقة مفروشة؟

– هل ستكون أفضل من الفندق؟

– بالطبع أفضل بكثير.

وصلنا مدينة 6 أكتوبر، فأخذ يجوب بي الشوارع، ومكاتب "السماسرة"، إلى أن حصلنا على شقة خالية بسعر مناسب، بعد أن عاينتها، وتفحصت الأثاث وسط ثناء السمسار المتواصل، لكل صغيرة وكبيرة بالمكان "شقة بحرية، الهواء فيها يرد الروح، العفش بشوكه، وأمين البواب الذي سيقضى كل احتياجاتي دون كلل أو ملل ووو..."، وقعت عقد الإيجار مع المالك لمدة سنة كاملة في حضور الشاب سائق التاكسي الذي ترك لي رقم هاتفه المحمول، للاتصال به إذا لزم الأمر، ثم غادر معهم طارحًا" باب الشقة من خلفه، فأخذت أجوب أركانها، وأنا أصرخ فرحًا–أخيرًا صار لي بيت عربي– تحسست قطع الأثاث وأنا أسرع الخطى نحو النافذة الزجاجية المطلة على الشارع، فضحكت بصوت عال عندما رأيت سائق التاكسي يقبض من السمسار عمولته، بعد مشادة كلامية طويلة.

أخذني التفكير إلى ناحية أخرى لم أحسب لها حسابًا"، و لم أتعود على دق خزائنها إلا عندما توقفني أمامها عاجزة، فقد أوشك رصيدي البنكي على النفاد، وكان لابد وأن أجد مصدرًا ماديًا يدعمني لأظل على قيد الحياة، ففكرت باللجوء للسفارة الهولندية بالقاهرة، فربما يساعدني المسئولون على إيجاد فرصة عمل تعينني على العيش، أمسكت بسماعة الهاتف، واتصلت بسائق التاكسي ليقلني إلى هناك، فأخبرني بأنه سيكون عندي بعد ساعة، وكانت المدة كافية لأجهز نفسي للقاء قد يدفعني للعودة إلى هولندا، أو البقاء كما أنا مصلوبة فوق الاتجاهات العربية، أتاني بوق

التاكسي من النافذة المطلة على الشارع، فاتجهت نحو المصعد وأنا أعد الخطوات، لكنها ورقة ولا بد وأن ألقي بها على أرضية اللعب. لم أسلم من فضول السائق، الذي أخذ يسألني ويسألني عن أدق التفاصيل، ويحشر أنفه في كل صغيرة وكبيرة، وأنا أحاول التملص لكنه كان يحاصرني ببراعة كما القدر، إلى أن توقفنا أمام السفارة الهولندية بالزمالك، عبرت البوابة الخارجية بعد أن أبرزت لحارس الأمن جواز سفري وأخبرته برغبتي في مقابلة أحد المسئولين، فتحدث في جهازه اللاسلكي، ثم سمح لي بالدخول، تلقّاني موظف الاستقبال بحفاوة بالغة، ثم سألني إن كان في استطاعته تقديم أية مساعدة، في تلك اللحظة خطر ببالي فكرة مقابلة السفير الهولندي"شورت لينيستر"، وتقديم الشكوى له.بما حدث لي، لكن شيئًا ما منعني، لم يكن أبدًا الخوف، بل كان قلبي الذي لم يطاوعني على كشف الغطاء عن سوءاتنا، فعدلت عن الفكرة سريعًا، ثم أخبرته برغبتي في الحصول على عمل يعينني على الإقامة هنا، لكنه أخذ يسألني ببروده الأوربي عن سبب نزوحي من هولندا إلى مصر، فتحججت بأسباب أشبه بالكذب ربما اقتنع بها، أو أنه تظاهر أمامي بذلك، فطلب مني تسجيل عنواني، ورقم هاتفي، ثم غادرت على وعْد منه بالاتصال القريب بعد توفير فرصة عمل مناسبة.

سألني سائق التاكسي عن سبب زيارتي للسفارة الهولندية، رغم إجابتي عن سؤاله سابقًا بأنني عراقية، فأجبته بغيظ:

– جئت أبحث عن عمل.

– تبحثين عن عملٍ وأنا موجود؟

ابتسمت مستغربة، لكن بدا وجهه جادًا عندما أخبرني بأنه يعمل صباحًا مترجمًا بمكتب لخدمات السياحة والسفر، وحاليًا المكتب في حاجة لموظفة تجيد الإنجليزية بطلاقة، زاد استغرابي، بعد أن أوقعني في مربع الفضول، فأردت أن أسأله عن كيفية الجمع بين الترجمة ومهنته كسائق، لكنه لم يمنحني تلك الفرصة، وأجاب عن سؤال أردته، بأنه حاصل على ليسانس في الآداب قسم لغات شرقية، ومهنة سائق التاكسي ما هي إلا لزيادة دخله، فقد شارف على الثلاثين و لم يتزوج بعد، وهذا حال معظم شباب مصر؛ بطالة، وفقر، وشعور بالضياع، ثم أخذ يثرثر عن أخيه الطبيب ومشاكله المادية، وأخته المقيمة معهم هي وأولادها بعد أن هجرها زوجها وسافر إلى الخليج و لم يعد، وعن أبيه وأمه المرضى، وجيرانه الكادحين، وأصدقائه و.. انتهى بنا الحديث أمام مكتب السياحة الذي أخبرني عنه، فصحبني إلى مكتب المدير الذي استقبلنا بترحاب شديد، فحدثه عن رغبتي في شغل الوظيفة الشاغرة، مؤكدًا له إجادتي للغة الإنجليزية، وأن جميع الشروط المطلوبة تنطبق عليّ، فنظر إليّ المدير، ووقعت عينه على بطني، رفع رأسه ناحيتي، وهو يضرب رأس قلمه بسطح المكتب ضربات متتالية:

- حضرتك حامل؟
- ....
- بكل أسف نحن نحتاج إلى موظفة استقبال.
- فهمت.

لكن السائق التاكسي أخذ يلح عليه، وبأسلوبه الكثيف استطاع أن يجعله يوافق على عملي كمترجمة بالقطعة، على أن أمارس العمل وأنا بمنزلي، فوافقت على هذا الاقتراح المناسب جدًا لظروفي.

في طريق العودة اختلف أسلوب الحديث بيننا، فالآن هو صاحب الفضل، فبدأت أبتلع عيوبه وأجيب عن أسئلته بارتياح، لكني كنت أهرب من بعضها، خصوصًا هذا السؤال الذي يتعلق بزوجي المفترض وجوده، فكلما اقترب من تلك المنطقة بادرته بسؤال عن حياته، فينسى كل شيء ويجيب عن سؤالي، لكني قاطعته عندما وقعت عيني على النيل بالخارج، فطلبت منه أن ينزوي إلى جانب الطريق، لأقف أمامه لأول مرة في حياتي، كان المشهد عامرًا بالأضواء والناس، فأمسكت بالسياج الحديدي، وأسندت ظهري للهواء، ثم أغمضت عيني وأخذت أدور مع الأرض، وأنا أملأ شراييني بالنقاء، توقفت.. ثم سألته وأنا أبعث برسائلي لدجلة والفرات والقمر:

- حقًا.. مَن يشرب من ماء النيل يعود إليه؟

فأجاب واثقًا:

- بل مَن يشرب من ماء النيل لا يخرج من مصر أبدًا.

20 مارس 2003

استيقظت على صوت الوجع، آن للجنين أن ينطلق، وينطق بحقيقة البشر.

بغداد تُقصَف بصواريخ الذنوب، بغداد تقصف ولا قلوب للقلوب – آه – أصرخ بالألم الرابض بأحشائي، أنزف ماءً ودماءً، دفعات، وركلات، وبغداد نار تحترق؛ أطفال، وبيوت ونساء – آه – من دموعك يا وطن، أهلي أنت وناسي، شوارعي وطرقاتي، أحلامي وذكرياتي – أصرخ، أصرخ، أصرخ – وحيدة بين جدراني، وما زلت أصرخ يا عرب، ولا مجيب لصرخات النساء.

سمعت دوي جرس الباب، هبطتُ من السرير، وانحنيتُ على بطني، حاولتُ التقدم لكني لم أستطع إقامة جسدي، ارتميتُ على الأرض، أخذت أزحف وأزحف، صفعات تأتيني بظهري، ببطني، وداخل عظام الجمجمة، فسبحت وسط بركة من الماء والدماء والعرق، صرخت بشدة، وبابي يدق، ويدق، ويدق، ومَن لأبواب بغداد من دقات القدر؟ الجرس ينخر رأسي، أشعره في جلدي كالمسمار "ززززز... ززززززز"، انزلقت نحو الباب، مددت أصابعي حتى لامست القفل، سقطت يدي، ارتطمت رأسي بالأرض، أعدت المحاولة وسط صراخي، ومطارق ظهري، ودقات القلب، قبضتُ على القفل بأطراف أصابعي، ثم دفعته للخلف، انفتح الباب .. آن لك أن تصمدي يا بغداد على أقفالك وأبوابك، وناسك، آن لك أن تصمدي .. ارتطمت رأسي بالأرض، ولم أشعر بشيء بعدها.

فتحت عيني على مصباح متوهج بالسقف، نظرت عن يميني فرأيت وجهًا مألوفًا، أعرفه جيدًا، لكنه كان يتموّج مع الأضواء، فلم أستطع الإمساك بملامحه كاملة، حاولت أن أرفع رأسي لكن منعني الألم، فأسرعتْ نحوي، ورفعتْ الوسادة من خلفي، وأسندتْ ظهري عليها، أحكمت الغطاء حولي ثم ربتت على يدي مبتسمة:

– حمدًا لله على سلامتك.

– ....

– أنا "هدى" جارتك.

– ماذا حدث؟

– مبروك. رزقك الله بطفل كالقمر.

– أين أنا؟

– بالمستشفى، لزم إجراء عملية قيصرية.

– مستشفى! طفل!

– يشبهك تمامًا.

– أين هو؟

أشارت لسرير صغير جواري، ثم اتجهتْ نحوه، وأخرجتْ منه الطفل برفق، وناولته لي:

– قولي " بسم الله" هيا أرضعيه.

تحسستُ وجهه، وحدّقت في ملامحه لأجد نفسي بينها، فرأيت فيها وجوهًا كثيرة، ولم أعثر على ملمح واحد لوجهي، فصرخ باكيًا.

– أرضعيه، إنه جائع.

هممتُ بإرضاعه، لكن قاطعتني دقات الباب:

– أعرفك بـ "إبراهيم" زوجي.
– حمدًا لله على سلامتك يا مدام.
– اللـه يسلمك.
– مبروك، ماذا ستسميه؟

حدَّقت في وجهه الباكي، وعلقت بصري بسقف الغرفة، ثم أجبت بلا تردد:

– "قاسم".
– اسم جميل. بارك اللـه فيه.
– هذا اسم والدي.
– إذن فما هو اسمك؟
– "نداء".
– اضطررت أن أسجلك عند دخولك هنا باسم زوجتي.
– لكنها مجازفة، افرض مثلا أنني مُت.
– مَن يريد أن ينقذ إنسانًا من الموت لا يفكر إلا في حياته.
– لكن..
– كنت فاقدة الوعي، وكان يجب أن أتصرف.
– أشكرك.
– أين زوجك؟
– لم أتزوَّج قط.
– ماذا!!

زاد اندهاشهما بعد ما قصصت عليهما مأساتي، وزاد أكثر وأكثر عندما رفضت اقتراحهما بتقديم شكوى للجهات الرسمية، خرج "إبراهيم عبد الفتاح" من الغرفة يضرب كفًا بكف، فعدتُ لإرضاع الطفل رضعته الأولى من تلك الحياة. استدعى زوجته للخارج، وبعد لحظات طوال عادا يقترحان تسجيل الطفل باسمهما، كي يستطيع مواجهة المجتمع بلا مشكلات، فقبلت اقتراحهما بعد مهلة طلبتها للتفكير العميق.

9

الجـرعــة الرابعــة

الخـامســة

السـادسـة

خرجت من غرفة الطبيب هائمًا على وجهي، بعد أن أخبرني بأنها في مرحلة الاحتضار، أهكذا تكون النهايات؟ لا يمكن أن تنهار أجسادنا بهذه السرعة، فالجسد لا يفله إلا التراب، ولا يمكن للتراب أن يغمرنا إلا بالموت، إذن فنحن مَن نسلم أنفسنا كبشًا للعدم دون أدنى مقاومة، فتنهار خلايانا وتندثر فينا كروموسومات الحياة، فنموت أحياء قبل أن تُزهق أرواحنا.

سقط شعر الجميلة، وتداخلت معالمها؛ فدثَّرت بقاياها بقطع القماش، أسمع تأوُّهاتها فأشعر بالعذاب لأنني لست أنا مَن يحمل عنها تلك الأضغاث، فجلست إلى جوارها، أتلقى منها الروح لتسكن داخلي،

فكانت أحيانًا تذهب عن الدنيا فلا تعي منها غير الشهيق والزفير، وأحيانًا أخرى تشعر بوجودي، فتبتسم لي من خلف جفونها المواربة، ثم تعود إلى حلمها الطويل.

بالصباح. عدت لأجد وجهًا متورِّدًا مُضَمَخًا بالألق، كانت تجلس على طرف السرير الأبيض، وبصوت نابض بالحيوية ردت على تحية الصباح، فلم أصدق ما رأيته، أو ما سمعته، هل خابت ظنون الأطباء ولو صدقت؟ أم أن الله أبدلها روحًا أخرى تحيا بها من جديد؟ فابتهج وجهي، وانطلقت العبارة تلقائيًا:

- الله .. أنت جميلة جدًا اليوم.

فتساءلت مداعبة:

- اليوم فقط؟
- بل اليوم وأمس وغدًا، وكل يوم.

احمرّ وجهها خجلا، فابتسمت قائلة:

- شكرًا لك.
- بل الشكر لك أنت، لأنك قاومت المرض.
- ألم تقل لي إن أبطال رواياتك أقوياء؟
- بلى.. قلتُ ذلك.
- وها أنا اليوم أشعر أنني في كامل قوتي.

لم تكن تلك اللحظات من حلم جديد، و لم أقتنع بأنها حقيقة لجنوني بالأحلام، لكن حتمًا هي الحقيقة الجميلة التي نخشى زوالها.

مرت الساعة بيننا، قضيناها هنا وهناك، بعيدًا عن أحاديث النهايات،

وما يهم البشر، فأخذت تسألني عن سير الأحداث في رواياتها، وكيف بدت هي؟ شريرة أم طيبة؟ مذنبة أم مجني عليها؟ فأخرجت الأوراق من حقيبتي، وضممتها لصدري، ثم سألتها:

- وأنت ماذا تتوقعين أن تكوني؟
- شريرة طبعًا.

انطلقت ضحكاتنا معًا، لكنها فجأة توقفت عن الضحك ثم أمسكت برأسها، وتأوَّهت بشدة، حدَّقت في وجهها مذهولا حينما زادت تأوهاتها، قفزت من مقعدي محاولا التقاطها، لكن السقوط سبقني إليها، حملتها برفق ووضعتها على السرير، عدوْت إلى الخارج كالمجنون، كنت أستغيث بكل مَن يقابلني، حتى تلقفني الطبيب مفزوعًا، فصرخت في وجهه:

- أنقذها أرجوك.

هرول الطبيب خلفي تجاه غرفتها، دفعت الباب بقوة، ففوجئت بـ "إبراهيم عبد الفتاح" وزوجته "هدى" يقفان جوارها، فالتصقت قدماي بالأرض عندما رأيتها تضم الطفل إليها بقوة، وكاد الصوت يخرج منها كحفيف الأوراق: "لا تدع لحظاتك تمضي دون أن تعيشها، ولا بد أن تعيش، وإيَّاك أن تقترب من الموت إلا وأنت بكامل أناقتك" أمسك الطبيب بيدها، فلم أعد أسمع إلا دقات الساعة المُعلَّقة بمعصمه، وجحافل الصمت التي تتبختر تحت نعال المارة بالخارج، علت هواجسي بالصراخ، وبأشياء أخرى تجمدت بين القلق والبكاء، التفتت إلينا ومسحت وجوهنا بابتسامتها الحانية، ثم انسابت نظراتها نحو السماء، ضمت ابنها بقوة،

تشبثتْ به، فصرخ باكيًا.. سكن صوتها.. فلم أنبس بكلمة واحدة.. ارتشفت جارتها النحيب.. سقطت يدها من بين أصابع الطبيب، فسقط كل شيء.. صمت كل شيء، إلا صوت أنفاسي اللاهثة، وتمتمات جارها بآيات قرآنية.

10

بالجورنال

طلبت من "عم حسين" أن يسدل الستار على النافذة، ويغلق الأضواء والباب من خلفه، ثم بدأت كتابة مقالي اليومي على ضوء "الأباجورة" الخافت، فها أنا قد عدت لأستمتع بالظلام، وأمارس لعبة اللا كتابة مع ما تبقى لي من أوراق، فالمصفقون لن تكف أياديهم عن صفع الهواء، يخرجون كل يوم يحملون جِرارَهم الفارغة، ثم يعودون واهمين بالبلل، لذلك كان يجب أن أكتب وأكتب كما يحلو لهم، فبم يفيد الصياح في الخرائب؟ وما جدوى الكتابة طالما أنها لا تمحو الذنوب؟ أيقنت أخيرًا أنه يجب أن نعيش في صمت، كما يجب أن نموت في صمت، ولا ذكرى لنا في عالم أعمى لم يعد يرى ماضيًا ولا حاضرًا، ولا حتى مستقبل، فنعيش كما نموت، ونموت كما نعيش.

وضعت نقطة النهاية لمقالي "إنجازات حكومة لا تنتظر شكرًا"، ثم قررت المغادرة، لكنني شعرت بحركة غير عادية بالخارج، فوقفت أمام

مكتب "فريد زيدان"، لألتقط الأخبار، فسمعت أحد محرري الأخبار يقول له بلهجة باردة:

- فرق الإنقاذ لم تتحرك حتى الآن.

فدفعني فضولي للتدخل.

- مساء الخير.
- مساء النور يا "ضياء".
- هل هناك أخبار جديدة؟
- فرق الإنقاذ لم تتحرك حتى الآن.
- عن ماذا تتحدث؟
- ألم تسمع عن غرق عَبارة "السلام 98" بالبحر الأحمر؟
- إنها كارثة حقيقية!
- نحن أول جريدة تنفرد بنشر الخبر.
- لم أنتبه!

بالمقهى.

فزعت على صيحات، وتهليلات الحاضرين لفوز منتخبنا الوطني بالمبارة النهائية لبطولة كأس الأمم الإفريقية، فاقشعرَّ بدني على وقْع مراسم الفوز، والأغاني الوطنية.

ما أتعسنا حين تعزلنا الأيام في دائرة، فنظل ندور وندور داخلها، وعندما نتوقف نجد أنفسنا كما نحن، وإن فكَرنا يومًا في التمرد نحو الخارج؛ تذبحنا بنصْلِها، فنعود سريعًا إلى حيث بدأنا، ندور، وندور بلا رحمة، لكننا لا نعي متعة التحرك، إلا إذا ارتفعت أرواحنا للسماء فنرى

الأرض من بعيد كما نرى القمر، ونعيش على أمل التحليق، فنظل نصارع للوصول إليه إلى أن نحط بأثقالنا على الماء، فننزلق برؤوسنا في الوحل.. لذلك كانت كل الأماكن تسير حولي برتابة، من الجورنال إلى المقهى، ثم إلى البيت، ولا شيء آخر يرافقني إلا فلول ذكرى أردت لها الانتحار من جسدي، لأتخلص من تلك الآلام التي تعصرني، فألقي بنفسي من فوق تلال الجليد لأتفتَّت كالبلور، وفي النهاية أنصهر وأتبخر من أنف العالم بلا عودة.

29 ديسمبر 2006

في تلك الليلة عدت إلى المنزل مبكرًا، جلست أتفحَّص رواياتي وكتبي وألبوم الصور، فرأيت نفسي في طفل كَسَتْه أمه بثوبها الأسود، ولم تترك له كُوَّة واحدة ينفذ منها إلى الفرح، حتى ظن أنه لا يوجد في الكون غير حزنها وفرحها، مهما رأى من أفراح وأحزان البشر، والأشياء.

أخرجت صورها التي كنت قد أخفيتها بعد مماتها، لأنفرد بنفسي بعيدًا عن سلطانها، لكني ظللت أبحث عنها على كل جدار، فكنت أراها داخلي، وفي كل مكان. حملتُ صورتها، وأعدْتُها إلى مكانها جوار صورة أبي، نظرت إليهما برضًا بعد أن اطمأنتْ نفسي لما فعلت، اتجهت إلى غرفة نومي ففوجئت بما لا يصدقه إلا أنا، كانت لا تزال نائمة بفراشي، استيقظت على وقع أقدامي، وأنفاسي المتدفقة، فتمطَّت بدلال، ثم قالت كالأطفال:

– لماذا تأخرت عليّ؟

نهضتْ من الفراش، وتقدمتْ نحوي، ثم ضمَّتني إليها برفق بعد أن طبعت قُبلة على خدِّي الأيمن:

– لن أسمح لك أن تغيب عني أبدًا.

– أين كنت؟

أجبتها بهمس، وأنا أتحسس ملامح وجهها:

– كنت معك.

صفعت كتفي بِرِقَّة، ثم قالت بلهجة النساء:

– معي أم معها؟

– كنت مع الحقيقة.

– إذن فأنا الحقيقة.

– لا.. نعم.

– ماذا؟

– لا أعرف.

– ولن تعرف.

علَتْ ضحكاتها الساخرة، تراجعتْ للخلف، ثم اختفت في الجدار.

شعرت أنني يجب أن أغادر المنزل، كي أهرب، وأتنفس، وأعيش في مكان آخر ولو للحظات معدودة، خرجت إلى الشارع، فوجدت الكورنيش مزدحمًا بالناس، والسيارات، وبائعي البطاطا، والحُمص والذرة، عبرت الطريق إليهم، اقتربت منهم، تداخلت معهم، شعرت أنفاسهم، ذبت بينهم تمامًا، فآنست روحهم بين ضلوعي، لم أجد مقعدًا

خاليًا، فأسندتُ ظهري للسياج الحديدي ووقفت أتأمل الفرحات، والصيحات وقفزات الأطفال، استدرت ناحية الماء وشردت بعيدًا، فعادت نغمات العود تأخذني إليها من جديد، نظرت إلى المقعد الخشبي عن يميني فوجدته هو ذلك الشيخ، عاد ليعزف ويغني ويجمع الناس من حوله:

يا ليلة العيد آنستينا وجددتِ الأمل فينا.

اقتربت منهم، توقفت أمامهم، وبدأت أنساب معهم دون أدنى مقاومة، فرمقني بنظرة دافئة، ابتسم في وجهي، ثم عاد ليواصل الغناء.

بالصباح. كنت أحسه صباحًا مختلفًا، فأردت أن أحتفي بالعيد كما يحلو لي، خرجت من الحمام بعد متعة الاستحمام، وارتديتُ بِزَّة جديدة لم يسبق لي ارتداؤها من قبل، ثم وضعت عطري المفضل، ونظرة طويلة في المرآة. خرجت إلى الصالة وفتحت التلفاز لأستمتع بأغاني العيد، لكن قاطعني جرس الهاتف، فالتقطتُ السماعة، فكانت "سهام" هي أول من يُهنئني بالعيد كما العادة، وبعد أن انتهى الحديث بيننا، عاد جرس الهاتف يقاطعني من جديد:

- عيد سعيد يا "ضياء".
- أعاده الله عليك بالخير يا "فريد".
- وأنت بكل الخير.
- سعيد جدًا باتصالك.

- أردت أن أكون أول مَن يُهنئك بالعيد.
- تسبقك "سهام" دائمًا.
- لكني أسبق إليها للخبر.
- وما جديدك اليوم يا "رويترز"؟
- خبر إعدام "صدام حسين".
- ماذا؟
- قناة "الجزيرة" تعيد بث مشهد الإعدام الآن.
- اليوم يا "فريد"؟!
- قلت لك الآن.

وضعت سماعة الهاتف، وأبدلت القناة الغنائية، بقناة الجزيرة، فرأيت "صدام حسين" يقف بكامل أناقته، هادئًا، متماسكًا، يلتف حوله عدد من الحراس الملثَّمين بغرفة شبه مظلمة، واحد منهم يتحدث إليه، وآخر يلف الحبل حول عنقه- "أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله"- رددتها معه، قبل أن تتدلى ذنوبه على أعناق العرب جميعًا.

عاش طاغية ومات بطلا..انتهت اللعبة يا صدام.. أهكذا ثأرت لضحاياك؟!

قضيت نهاري مكتئبًا، أخرج من تلك الغرفة، وأدخل تلك الغرفة، أمشي بهذا الركن، وأجلس على هذا المقعد، حتى شعرت باختناق قادني إلى هنا لأكتب المشهد الأخير، لكني بِتُّ لا أعرف النهاية، فنظرت إلى السقف لأتوسل إلى السماء بكلمة أكتبها تلقيني إلى حيث أنتهي، فرأيت في نفسي ما أطلبه من السماء والأرض، نهضت من خلف المكتب حاملا

مقعدي، وضعته بمنتصف الغرفة، اتجهت إلى النافذة... نزعت الحبل عن الستارة المُسدَلة.. صنعت من طرفه حلقة بحجم الرأس، ثم صعدت إلى الكرسي، وعلقت الطرف الآخر بالسقف، هبطت إلى الأرض، ثم عدت إلى أوراق الرواية المنشورة على سطح المكتب، لأضع نهايتي بنفسي قبل أن يصنعها لي الآخرون.

"يرحمهم الله مَن ماتوا يتأرجحون بين السماء والأرض".

لم تتم بعد

ضياء عزام

نهــاية أخـرى

15مايو عام 2050
السجن مدى الحياة
سقطت بقعة الضوء على الزنزانة "442".

بانت ملامح السجين تدرجيًا، فلما اكتملت للرائي، راح يتحرك ليعترض النور المتسرب من بين قضبان النافذة، أخذ ينظر لخياله المُمدَّد على الأرض، حاول الاقتراب منه لكنه كان يبتعد، استدار لمواجهته فقفز خلفه، توقف ثم رفع رأسه ناحية النافذة، وردد بصوت مسموع:

- لم تتم بعد.

هز رأسه متنهِّدًا، ثم طوى الرواية بين يديه، وعاد يجلس على طرف الفراش، أخذ يحدِّق في الرسالة المكتوبة بالصفحة الأولى، فتح الرواية مرة أخرى، وجعل الأوراق الصفراء تتوالى بين يديه حتى فاحت منها رائحة الرطوبة، ألقاها على الفراش، واتجه ناحية الباب حيث كان وقع أقدام يقترب، أمسك بالقضبان، ووقف على رؤوس أصابعه، محاولا الكشف عن هوية القادم بالخارج، فسمع طقطقة القفل الإلكتروني، وصوت جسد آدمي يرتطم بالجدار الفاصل بينهما، تبعه صياح السجان:

– منّه لله من ألغى حكم الإعدام.. كنا استرحنا من أشكالكم.

انغلق الباب، واقتربت الأقدام من زنزانته، فانبطح على ظهره متظاهرًا بالنوم.

فتح عينيه، وحملق في السقف مسترجعًا أحداث الرواية، هز كتفيه ثم أردف قائلا:

– تلك هي حقيقتنا جميعًا.

استدار مستلقيًا على وجهه، ثم جذب الغطاء مستغرقًا في النوم.

5 مايو 2040

سجن الإعدام

الزنزانة "442" التاسعة صباحًا.

يفتح السجان باب الزنزانة، تخرج سيدة عجوز بخطى متثاقلة، تدوس الأرض بعكازها، وبيدها الأخرى تطرح أطراف غطاء الرأس فوق كتفيها، أغلق السجان الباب من خلفها، ثم أحكم الإغلاق بالمفتاح، نظرتْ للخلف بعد أن سُكن الصرير، عادت تقترب من الباب، ألصقت فمها به وهي تنظر من الكُوَّة الصغيرة قائلة:

– كان يجب أن تعرف الحقيقة يا بني، فلا تجعلها تزعجك.

أخرجت منديلا من حقيبتها، جففت دموعها، ومدت يدها الأخرى للسجان بمبلغ مالي، ثم ربَتت على ذراعه قائلة:

- اهتم به من فضلك حتى تحين لحظة الـ...

دس المبلغ في جيب سترته، ثم قال متحمسًا:

- حتمًا سأهتم به.

ألقت نظرة أخيرة على باب الزنزانة، واستدارت ناحية الخارج، حتى تلاشى دبيب عكازها مع نهاية الممر.

التاسعة مساءً.

بين الجدران الأربعة.

إلى أين سأهرب من تلك الأوراق، وهي الحبيسة معي في زنزانة واحدة قوامها الحديد والنار، إلى أين سأُلْقِي بها وأخفيها عني، وعن صفحات الموتى التي تنتظرني بين لحظة وأخرى لتحصُرني بين قوسيها!

أمي.. أمي.. أمي!

أتعثَّر على الطرقات المعبَّدة بأجساد المطحونين، أنزلق تحت بساط اللحم الآدمي، لأبحث عنك يا أمي، كيف تجرَّأت المسافات بيننا لتُلقيني هنا بعيدًا عنك، أو عن حقيقتي التي عشت حياتي أجهلها، ولكني كنت أشعرها قريبة جدًا مني، فأنظر لوجهي، وتقاسيمي، وجلدي، فلا أجد أيًا منها فيمن حولي، لا أمّ، لا أب، لا أخوات، ولا دماء تجري، فقط أرى ظلالا سوداء، وخطوطًا تائهة، تتشابك، تتزاحم، لكنها لا تتقاطع أبدًا.. أنظر لأبي، لا أشبهه، لإخوتي، لا أشبههم، لأمي لا.. فأقنعت هواجسي

أنني يجب أن أفتش عن تلك الملامح داخلي، فقلت لنفسي ربما قلبي هو من يحمل ملامحهم جميعًا، ويضخها في جسدي دون أن أدري، فآمنت به كما آمنت بالله، نعم آمنت بوجودي كإيماني بوجود إله لا نراه، والآن فقط أيقنت أن وجودي لم يكن من العدم، بل من الذنوب الشاخصة على تلك القضبان، وعلى مرايا البشر الآثمة.. بالأمس قررت أن أجرِّب وأجرب كل الأفكار المطروحة على الطرقات، لأعبر بها إلى جانب أرضاه للناس جميعًا، وأنفرد بما جنيته من ثمارها لألتهمه بعيدًا عن أشجار المُر، لكنني اليوم فقط أيقنت أنني صهرت عمري في جمع فتات قاتلي. جلست على حصير الإخوان المسلمين، وعشت دهاءَهم، وعدْتُ بالعجلة إلى الخلف مع الناصريين، وعشت أوهامهم، وتمردت على كل شيء مع الليبراليين، ولم أحظ بشيء إلا الكذب والنفاق والخداع، فاستوردت قوانين البعث إلى هنا، ورفعت صورة "صدام" بطلا إلى جوار صورة "منتظر الزيدي"و"جيفارا" و"فيدل كاسترو"و...إلخ. في النهاية كفرت بكل الصور، وآمنت بنفسي فقط، وقتلت. نعم قتلت رئيس الوزراء أملا في حياتنا جميعًا، ولم يخطر ببالي أبدًا أنني سأموت هنا وحدي دون أن أعرف من أكون أنا.

أنا.. مَن أنا!

هل من مُجيب؟

أريد أن أعرف من أكون؟

لكنني أعلم جيدًا أنه لا مُجيب، كما أعلم أن الصمت سيظل ينحر حناجر العرب جميعًا.

حصر الأوراق بين يديه، وحدق في الرسالة المكتوبة بمنتصف الصفحة الأولى، ثم ردد متهكمًا:

- فكن قويًا دائمًا مهما داهمتك الحقائق.

قاطعه السجان بفتح الباب،مقتحمًا الزنزانة، وأخذ يتشمم بنظره هنا وهناك، ثم سأله متعجبًا:

- أما زلت تمسك بتلك الأوراق، وتحدث نفسك؟!
- وهل ترى هنا غير نفسي لأتحدث معه؟
- يمكنك أن تتحدث إليّ. فقد أوصتني أمك أن أهتم بك.
- أمي!
- أليست أمك مَن كانت هنا؟
- بلى. هي أمي.
- يبدو أنك جائع.. سأحضر لك وجبة عشاء إضافية؟
- لا أشعر بالجوع.
- إذن.. فيم كنت تحدث نفسك؟
- أُحدِّثُها عن موتي.
- لا أحد يعلم متى سيكون.
- كثيرون هم مَن ولدوا ليموتوا فقط، وأنا منهم.
- لماذا قتلت رئيس الوزراء؟
- قتلته من أجلك، ومن أجل جلادي.

- يُستحسَن أن أحضر لك وجبة إضافية فورًا.

انصرف عنه طارقًا الباب من خلفه، وعاد هو يتحدث إلى نفسه.

***

أمن الدولة

وكيل النيابة:

- اسمك؟
- "قاسم إبراهيم عبد الفتاح".
- سِنُّك؟
- 37 عامًا.
- عملك؟
- ليس لدي عمل.
- لماذا قتلت رئيس الوزراء؟
- آمنت بنفسي؛ فقتلته.
- ماذا تقصد؟
- حاكموا أفكاري إن أردتم.
- تعترف بأن أفكارك إرهابية؟
- أطلق عليها ما تشاء من مسميات.
- إذن فأنت..
- أنا قتلت لنحيا جميعًا.
- هل كان لك شركاء؟

- كلنا يجب أن نكون شركاء.
- لكن قبض عليك وحدك.
- بل هربت من رصاص الحراس، وسلمت نفسي للشرطة.
- كيف كانت خطتك؟
- نجحت لأنني لم أخطط لذلك.
- هي صدفة إذن؟
- نعم.
- لكن ضابط الحراسة الذي خطفت سلاحه وارتكبت به الجريمة قال بأنه شاهدك أكثر من مرة تحوم حول مبني مجلس الوزراء.
- كلا. لم يحدث أبدًا.
- وبمَ تفسر وجودك هناك وقت خروج رئيس الوزراء؟
- لا أعرف ما الذي قادني إلى هناك في تلك اللحظة.
- لكن إلى الآن لم نعرف دافعك الحقيقي للقتل.
- انظر للناس من حولك وستعرف.
- معنى ذلك أنك معترف بجريمتك.
- وأقرُّ بها.
- وقِّع على اعترافك من فضلك.

بالمحكمة

صدر الحكم بإعدامه شنقًا حتى الموت.

15 مايو 2040

كانت تجلس على الطاولة البعيدة جوار الجدار الزجاجي، تتأمل المارة بالخارج، وتتحسَّس وجهها المنعكس على الزجاج الشفاف، كان النادل يتجوَّل بين الطاولات دون أن يراها، أو يلتفت إليها – فالموتى لا يأكلون ولا يشربون – نظرت لأعين الحاضرين فرأتها كأعين التماثيل والدمى، أشاحت بوجهها عنهم وعادت لترقب تحركات المارة بالشارع الممتد، شعرت به قادمًا، فالتفتت إليه مبتسمة، أسرع الخطى نحوها، وأمسك بيديها برفق، ثم قال متلهِّفًا:

- "نداء".. أنت هنا!
- كنت واثقة أننا سنلتقي يا "ضياء".
- هل أتيت من أجله؟
- يجب أن أكون جواره بهذا اليوم.
- سنكون جواره معًا.

سادت لحظات صمت بينهما، قطعها المذيع بأهم أنباء الساعة:

- "رئيس الوزراء المصري المنتخب يتسلَّم مهامه اليوم،ويدعو إسرائيل بالالتزام بقرار مجلس الأمن والعودة إلى حدود عام 2020".
- الرئيس الإيراني يزور ألمانيا كأول زيارة من نوعها منذ إلقاء إسرائيل القنبلة الذرية على بلاده عام2012.
- الرئيس الكوري يعلن عن طرح ملف الشرق الأوسط بالمؤتمر الاقتصادي العالمي بـ "هونج كونج".

- الرئيس الأمريكي يفوز في استفتاء الرئاسة بنسبة99.9%، للمرة الثالثة على التوالي بعد تفكيك الولايات المتحدة.
- لم تتغير الحال كثيرًا.

قالتها بأسى، فنظر إليها "ضياء" مستغرقًا في الصمت.

الزنزانة "422" إعدام

كان لا يزال مُمْسكًا بأوراق الرواية، ويُحدِّث نفسه حين فتح السجَّان الباب مقدمًا له وجبة الطعام الإضافية، قائلا بلهجة حانية:

- تفضل.
- قلت لك لا أشعر بالجوع.
- لا بد وأن تستمتع بكل شيء.. فلحظاتك معدودة.
- ربما المتعة في العالم الآخر، تتعدى متعة الطعام والشراب، و..
- وماذا؟
- لا شيء.
- أما زلت مُمْسِكًا بتلك الأوراق؟
- إنها حقيقتي التي لا مفر منها.
- جميل أن يعرف الإنسان حقيقته.
- لكن الحقيقة أحيانًا تكون قاتلة.
- وما الجديد؟ فأنت أيضًا قاتل.
- لكني قتلت الظلم.
- كل مَن يأتي إلى هنا يقول هذا الكلام.

- لكن ليس كل مَن يأتي إلى هنا يستطيع أن يعرف حقيقته.
- ألا يكفيه أنه سيموت؟
- وما فائدة الموت قبل أن نتوصل لحقائقنا؟
- وما فائدة الحقيقة طالما أنك ستموت؟
- على الأقل سأموت مقتنعًا بمصيري.

أطرق السجان قليلا، ثم رفع رأسه قائلا:

- لا بد وأن تأكل، وتشرب، وتستمتع بالحياة قبل فوات الأوان.
- هل هناك معلومات عن موعد التنفيذ؟
- الموعد يظل سرًا حتى تأتينا الأوامر.
- هل لي بطلب بسيط؟
- أكيد.. تفضل.
- خُذ تلك الأوراق، سلِّمها لمن سيأتي بعدي هنا ليعرف حقيقتي كي لا تموت معي إلى الأبد.

ربَت على كتفه، ثم سحب الأوراق من بين يديه، وأردف قائلا:

- هل تسمح لي بقراءتها؟
- بكل تأكيد.
- سأكون حريصًا على تنفيذ طلبك.
- شكرًا لك.
- الآن سأتركك لتخلُد إلى النوم.
- النوم!

– نعم لا بد وأن تستريح.

قالها مُرْبِتًا على كتفه، ثم غادر الزنزانة طارقًا الباب من خلفه.

أذان الفجر.

الله أكبر الله أكبر

لا إله إلا الله

اقتربتْ من فراشه، جلستْ جوار رأسه، مسحتْ بيدها على شعره، وقبَّلته بين عينيه، التفتتْ إلى "ضياء" قائلة:

– ابني يا "ضياء".

أعادت التحديق في وجهه، ثم همست جوار أذنه:

– لا تدع لحظاتك تمضي دون أن تعيشها، ولا بد أن تعيش، إياك أن تقترب من الموت إلا وأنت بكامل أناقتك.

فتح عينيه، ونظر إليها مستغربًا، فضمَّته إلى صدرها بقوة، ثم ضمت كتفيه بين يديها، وأخذت تلتهم وجهه بعينيها، فأنزل يديها عن كتفيه في هدوء، ووجِم في وجهها قائلا:

– كيف تريديني أن أعيش وأنا مقدم على الموت شئت أم أبيت!

– يمكنك أن تصنع من موتك حياة أخرى يا بُنيّ.

– لكنك تركتني أعيش تلك الحياة وحدى، تركتني ورحلتِ دون أدنى مقاومة.

قاطعه "ضياء" قائلا:

- واجهت أمك الموت بكل شجاعة لتحيا أنت يا "قاسم".
- حتى أنت كتبت حقيقتي وتركت النهاية لمجهول لا أعلمه.
- كان لا بد وأن أنسحب لأقتل الخوف داخلي.
- تقصد .. تهرب، أليس كذلك؟

تنهَّدت، ثم وضعت يدها على كتفه قائلة:

- يا بُني التقينا هنا على غير موعد لنكون إلى جوارك.
- وماذا تنتظران مني؟ أن أقدم على الموت بكامل أناقتي؟
- يا بني..
- ابن مَن أنا؟
- أنت ابني.
- قلت لك ابن مَن أنا؟
- ابني... أنت ابني... ابني.

شعر بيد تلكزه، فنهض مفزوعًا:

- مَن؟!
- هل كنت تحلم؟
- لم أذق النوم كي أحلم.
- لكنك كنت تهذي.

- قلت لك لم أنم.
- أعتذر.. لكن..
- لكن ماذا؟
- جئت كي أخبرك بأن الأوامر قد صدرت بتنفيذ الحكم.
- ومتى سيكون؟!
- لجنة التنفيذ قادمة الآن.
- الآن!

احتد وقع الأقدام المتزاحمة بالخارج عندما بات وشيكًا من الزنزانة.

بغرفة الإعدام

كان "ضياء" يقف إلى جواره على المنصة، جذب نفسًا عميقًا، بينما كان مساعد الجلاد يلف الحبل حول عنقه، نظر لأمه نظرة طويلة، ثم رفع عينيه للسماء، قبل أن يسدل الجلاد كيسًا من القماش الأسود على رأسه، وقيَّد قدميه ويديه، ثم حانت اللحظة... كن قويًا دائمًا مهما داهمتك الحقائق... واجه الموت بكامل أناقتك.

أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله.
تدلت أجسادهم في الهواء.

ستكون قبورنا ها هنا.. تحت المشانق؛ لتنبت يومًا من قلوبنا المتحللة حبات من ثمار الفراولة الحمراء.

"يرحمهم الله مَن ماتوا يتأرجحون بين السماء والأرض".

محمد سامي البوهي

إبريل 2009

تمت

سيرة ذاتية

محمد سامي البوهي
كاتب وصحفي مصري.
مواليد عام 1977.

صدر له:

- "لوزات الجليد" مجموعة قصصية، مركز الحضارة العربية 2006.
- "رائحة الخشب"، مجموعة قصصية، مؤسسة شمس للإعلام 2008.

الإيميل :
blkbohy@hotmail.com

تحت مِرَشّ الاستحمام، حاولت أن أزيح قرفهم عن جسدي،تمنيت لو أنزع جلدي، وأغيِّر كل أنفاسي، ورائحتي، تحسست بطني المنتفخة بالذل، بالقهر، بظلم الإنسان للإنسان، وتذكرتُ كلام أبي عندما رآني أهبط من سيارة زميلي "بيتر" في وقت متأخر من الليل- أنت عربية، وبكارتك هي حياتك- أحنيْت رأسي على صدري، ودفنت دموعي في المياه، وطردت أفكار الموت عن رأسي، فما زلت أعيش على أمل لقاء الوطن، والوطن هو كل الحياة، ومن أجل الحياة لا بد وأن أضحِّي وأتشبث بآخر قطعة لحم يمكن أن تجمع تكويني حولها من جديد، لذلك أنا هنا، وسأظل هنا بكل قوة، أصارع هياكلهم الملطخة بدماء الضحايا. وقفت بالشرفة، وتأملت الشارع المزدحم بالسيارات والناس، رفعت رأسي للسماء وأخذت أشكو إلى الله، أشكو بكل أوصالي، وتقاسيمي، ونبضي، فسالت دموعي حتى إنني رأيت الأضواء من خلفها تتحلل. (من الكتاب)



